الآثار الفلسفية للداروينية

(دراسة تحليلية نقدية)

إعداد

د. خالد بن محمد القرني

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة وأصول الدين - جامعة الملك خالد

ملخص البحث

يهدف هذا البحث -بشكلٍ رئيس- إلى إبراز الآثار الفلسفية للنظرية الداروينية؛ وذلك من خلال العمل على تحليلها واستجلاء مواقفها في مجالي: نظرية المعرفة، والنظرية الأخلاقية لدى (داروين)، وتحليلها في مواقف بعض أتباع (داروين) من الفلاسفة والعلماء والسياسيين ونحوهم. وقد كان من أهم ما خَلُصَتْ إليه هذه الدراسة هو: أن التفسير الدارويني لنشأة العقل الإنساني قد فشل في إيجادِ تصورٍ منطقيٍ للضرورات العقلية وطبيعة المعرفة البشرية. كما أكدتْ على أن الداروينية تحمل -بوصفها أيديولوجيا هنا- نظرةً تقول بنفي وجودِ الحقائق الموضوعية، أو نسبية الحقائق على أقل تقدير، وأكدَتْ أن المنظور المعرفي الدارويني قد برز -بشكلٍ كبيرٍ- في محاولة الداروينية تفسير أصول الفكر الأخلاقي الإنساني، وأن الداروينية تمثل أحد أوجه التيار العدمي في الفلسفة الأخلاقية. كما أبان النقد العقدي لهذه الآثار الفلسفية عن مخالفتها الصريحة لعددٍ من الكليات التي يستقيم في ظلها فهم الدين والدنيا معًا، ونص عليها الوحي الكريم؛ وذلك ما يشكل عقبةً كبيرةً أمام دعوى الاعتقاد بالتطور الموجه مخرجًا لدرءِ تعارضِ الدينِ ونظريةِ التطور.

الكلمات المفتاحية: النظريات العلمية، التطور، الداروينية، نقد الإلحاد، الأبستمولوجيا، الإكسيولوجيا.



Abstract

This paper aims mainly to highlight the philosophical implications of Darwinian Theory through its analysis and clarification of its positions in two areas: the theory of knowledge, and the moral theory of Darwin. Moreover, analyze it in the positions of some of Darwin's followers, philosophers, scholars and politicians and the like.

one of the most important conclusions of this study was: The Darwinist interpretation of the emergence of the human mind has failed to find a logical conception of mental imperatives and the nature of human knowledge.

The study also emphasized that Darwinism includes - as an ideology here - a view that denies the existence of objective facts, or relativity of facts at the very least. Moreover, It confirmed that Darwinian cognitive perspective has emerged greatly in the attempt of Darwinism to explain the origins of human ethical thought, and that Darwinism represents one of the aspects of the nihilistic current in moral philosophy. The doctrinal criticism of these philosophical implications has also shown its explicit violation of a number of colleges in which religion and the life are both understood. This constitutes a major obstacle to allegations of belief in evolution as an exit to stave off conflict of religion and the theory of evolution.



المقدمة

الحمد لله القائل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١]، والصلاة والسلام على نبيه محمد ﷺ، ومن اقتفى سنته إلى يوم الدين. وبعد:

فإنه لا يخفى على المتابع لسياق الفكر الغربي ما يمثله العلم التجريبي من وزنٍ كبيرٍ في سياقه الثقافي؛ إذ مَثَّل العلمُ -باكتشافاته المتتالية- أفقًا استطاع من خلاله الغرب إسقاط عدد من مراكز الطغيان والاستعباد، كما مَثَّل مجالاً خصبًا انبثق عنه عددٌ من الرؤى الفكرية التي ترغب في الوصول إلى فهم أسرار الكون، ومحاولة تفسير الطبيعة بمختلف مظاهرها، وهذا الباب هو الموضع الذي ولجت منه الداروينية لإعطاءِ تفسيرٍ لنشأةِ حياةِ الكائنات يتوافق والروح العلمية الغربية، لكن الداروينية منذ أن عَرَضَتْ تفسيرَها أثارت -ولا تزال- جدلاً واسعًا مسّ أصل مصداقية دعواها العلمية؛ الأمر الذي أثار عدَّةَ تساؤلاتٍ أردنا مقاربة الإجابة عنها من خلال:

مشكلة البحث:

التي تظهر في محاولة الإجابة عن السؤال الرئيس: ما الآثار الفلسفية الكبرى في مجال المعرفة والأخلاق المترتبة على الاعتقاد بالداروينية؟ وللإجابة عنه يلزم الإجابة عن: ما موقف الداروينية من مصادر المعرفة عند الإنسان؟ وما طبيعة المعرفة التي تقررها الداروينية؟ وما الموقف من آثارها الفلسفية في مجال المعرفة؟ وما حقيقة الأخلاق التي تقررها الداروينية؟ وما الموقف من آثارها الفلسفية في مجال الأخلاق؟.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١. أهمية الداروينية وحضورها الكبير في المجال العلمي والإيديولوجي؛ إلى الحد الذي يمكن القول معه بأن التصور الغربي اليوم للعلم التجريبي في مجمله يتخذ من الداروينية أرضية خصبة له في العديد من المجالات، كالطب وعلم الأحياء وعلم الجينات، بل وعلم الاجتماع ونشوء المجتمعات والأفكار.

٢. ضرورة تأسيس المشتغلين بالفكر الإسلامي مدخلاً منهجيًا يمكن من خلاله مناقشة النظريات العلمية المخالفة للأديان، خصوصًا تلك التي نشأت في إطار العلم التجريبي.

٣. أهمية مساهمة المتخصصين في علم الاعتقاد في نقد الفكر الإلحادي المنبثق عن الداروينية.

٤. ضرورة المساهمة في التأسيس لعلم الاستغراب وفق الرؤية الإسلامية.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى:

١. التعريف بحقيقة الداروينية.

٢. إبراز الآثار الفلسفية للداروينية في مجال نظرية المعرفة.

٣. إبراز الآثار الفلسفية للداروينية في مجال الأخلاق.

٤. الكشف عن الموقف العقدي من آثار الداروينية الفلسفية.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على إعمال **المنهج التحليلي الوصفي**؛ للكشف عن الآثار الفلسفية للداروينية، وتطورها في السياق التاريخي. كما أن البحث في جزء منه يقوم على **المنهج النقدي**؛ وذلك لبيان الموقف العقدي الإسلامي من آثار الداروينية.

حدود البحث:

إن الداروينية تثير العديد من الأسئلة على مستوى وجود الخالق، وطبيعة الخلق، والتفريق بين نظرية الخلق والتطور، وكذلك خَلْق آدم ﷺ، وعلاقة هذه النظرية بتفسير نشوء الأديان، وكذا علاقتها بالإلحاد، وأين مكامن الصواب في النظرية، وما يمكن أن يتوافق مع نصوص الوحي أو لا يخالفها على أقل تقدير، ومدى ارتباط هذه النظرية بالمنهج العلمي من عدمه، وبالتالي تحليل الأدلة التي يقدمها العلم التجريبي لنقض الداروينية، وكذا طبيعة اللغات وتحليل نشوئها وفق نظرية التطور وبالتالي طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى تاريخيًا وجغرافيًا أو ما يسميه بعضهم بالبعدين الأفقي والعمودي، وكذلك طبيعة فلسفة المصادفة والعشوائية في التصور الدارويني وعلاقته بالتصور الديني ثم الفلسفي لفكرة المصادفة، وتحليل مواقف المنتسبين للإسلام ممن يؤيدون (داروين) ويستدلون لذلك بتأويل بعض

النصوص في محاولةٍ منهم لإقامةِ أرضيةٍ للتوافق بين الإسلام وما يسمونه العلم الحديث. إلى غير ذلك من الإشكالات الكبرى التي يثيرها تناول الداروينية بالمناقشة، وكلها تحتاج إلى دراساتٍ مستقلة، لكن **هذا البحث يركز على تحليل الآثار الفلسفية للداروينية في مجالي: المعرفة والأخلاق، وبيان الموقف العقدي منها**. وليس من شأن هذا البحث –نظرًا لطبيعة الأبحاث المحكمة في المجلات العلمية– دراسة غير ذلك من المسائل الكبرى التي أشرنا إليها أعلاه، كما أنه ليس من شأنه التأريخ لنظرية التطور في التراث الإنساني، أو الاشتغال بإبراز آثارها في غير المعرفة والأخلاق؛ لما يستدعيه ذلك من التفصيل الطويل والدراسات المستقلة.

الدراسات السابقة:

لم أجد –في حدود ما وقفت عليه– دارسةً علمية مستقلة تناولت تحليل الجانب الفلسفي للداروينية في مجال المعرفة والأخلاق من خلال العقيدة الإسلامية.

تبويب البحث[1]:

المقدمة. وفيها: مشكلة البحث، وأهميته وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وحدود البحث، والتبويب.

وتمهيد، ومبحثان هما:

المبحث الأول: الآثار الفلسفية للداروينية على أصول المعرفة.

المبحث الثاني: الآثار الفلسفية للداروينية على أصول الأخلاق.

الخاتمة. وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

فما كان في هذا البحث من صواب فمن الله وحده، والحمد له أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا. وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص والقبول، وأن يغفر لنا الزلل؛ إنه الكريم المنان.

---

(١) وقد ارتأيت تقسيم البحث على هذا المنوال؛ لأن الموقف من الأبستمولوجيا يؤثر بشكلٍ مباشر في الإكسيولوجيا؛ فتطال آثاره منظومة القيم، والمتمثلة في: (الحق) و(الخير) و(الجمال).

التمهيد

حقيقة النظرية الداروينية بين العلم والإيديولوجيا

تقدم (داروين) بنظريته في محيطٍ شهد انفتاحًا على العلم الوضعي؛ فقد حصل توسعٌ في المجالات التي دخلها العلم التجريبي، وأصبح بإمكان العلم ورجالاته إعادةُ النظر في تقريراتِ الكتاب المقدس إزاء الطبيعة والإنسان، بل ومناهضتها أحيانًا، على غرار ما فعل (كوبرنيكوس)(١) من قبل. وقد جاءت الداروينية في سياقِ برادايم مُعَيِّنٍ، يرتكز على الاعتداد بالعلم التجريبي، واتخاذه الميزان الذي توزن به المعارف، والثورة على القديم في جميع المجالات، ومحاكمة كل الآراء والمذاهب إلى مقولات الحداثة التي تنطلق من مركزية الإنسان وإرادة القوة ودعوى التنوير والحريات. ونظرية التطور ل(داروين) تصب وبشكلٍ صريحٍ في هذا الاتجاه؛ فـ"في عام ١٨٥٩م نشر (تشارلس داروين) كتابه الشهير: (أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي)، الذي دوَّن فيه ملاحظاته التي جمعها خلال رحلته على متن سفينة بيجل التي استمرت خمس سنوات؛ بغرض دراسة الحياة الحيوانية والنباتية والخصائص البيئية والجيولوجية، ومسْحها للعديد من الجزر في المياه الجنوب أمريكية التي خلص من خلالها إلى عدة نتائج"(٢)، كان أهمها أن "الباحث الطبيعي إذا تدبر أصل الأنواع وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية من الخاصيات المتبادلة، وما بين أجنتها من التشابه، واستيطانها؛ أي: اقتسام الكائنات الحية بين بقاع الأرض وتوزعها فيها، ثم تعاقب وجودها في خلال الأزمنة الجيولوجية...انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تُخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت كضروبٍ من أنواع أُخر"(٣).

---

(١) نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣م - ١٥٤٣م)، عالم بولندي، يعد مؤسس علم الفلك الحديث، وهو واضع نظرية دوران الأرض حول الشمس. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ٣/ ٢٠٠٥.

(٢) قصة الإلحاد، محمود عبد الرحيم، ص١١٣، وانظر: قصة داروين لفرانسيس داروين، داروين مترددًا لديفيد كوامن، معبد داروين لخالد الشايع.

(٣) أصل الأنواع، تشارلز داروين،١/ ١٢٥ (ترجمة: إسماعيل مظهر).

وتقوم جِدَّة (داروين) في الاعتقاد بتطور الأنواع بفعل الانتخاب الطبيعي، والتي تتلخص في قول داروين: "إن الانتخاب الطبيعي قوةٌ دائبةُ الفعلِ كل يوم، بل كل ساعة في استجماع التحولات العرضية في العالم العضوي...نافية كل ما كان مضرًا، مبقية على كل ما كان منها مفيدًا صالحًا،...لتهذيب كل كائن من الكائنات بما يلائم طبيعة حالات الحياة المحيطة به"(١)، وتقوم آليةُ "التناحر من أجل البقاء" عند (داروين) بدورٍ في إحداثِ التحولِ في الأنواع عن طريق إحداثها تبايناتٍ فرديةٍ في النوع تزيد من فرصة كفاءته للبقاء، وهكذا فبمرور عددٍ من التباينات لفترةٍ طويلةٍ من الزمن يحدث التحول في النوع. وبحسب (داروين) فإن هذه "التغيرات البيولوجية تحدث بالصدفة"(٢) ودون سببٍ موَجّهٍ لحدوثِ هذا التحول، أو وجودِ خطةٍ إلهية تصير إليها، فنفى بهذا الغائية الدالة على وجود الإله العليم، فـ"الداروينية إذن آلية بجوهرها، فلا تعتد إلا بنتيجة الصدف التي تتدخل في حياة الحيوان، وتستبعد كل مذهبٍ غائي"(٣).

وقد أبدى (داروين) منذُ المرة الأولى التي أفصح فيها عن فرضيته العلمية حماسًا قطع فيه بصحته، وَرَدَّ أيَّ معارضةٍ عليها في الجملة إلى إمكانية تجاوزها مع توسع البحث العلمي(٤)، وقد انعكس هذا الحماس لدى (داروين) في تطويره نطاق التنظير في هذه الفرضية ليشمل الإنسان؛ فـ"شهد عام ١٨٧١م نشر كتابه: سلالة الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس"(٥)، وتركزت الأطروحة الرئيسة لكتابه هذا في الكشف عن أصل الإنسان وتاريخ تطوره، وقرر فيه أن الإنسان انحدر من كائنات أدنى منه رتبة، ولم يُخلق خلقًا مباشرًا مستقلاً، ويشير (داروين) إلى أن طبيعة الأدلة المؤيدة لذلك هي: التراكيب المتشاكلة الموجودة في الإنسان والحيوانات المتدنية، ووجود أوجه التطابق المتنوعة، وكذا التطور بينهما، والتراكيب الجسمانية

---

(١) المرجع السابق،١/ ٢٢٨.

(٢) الدين والعلم، برتراند رسل، ص ٦٩، بتصرف يسير.

(٣) تاريخ الفلسفة، إيميل برهييه، ٧/ ٢٢.

(٤) انظر: أصل الأنواع،١/ ١٢٨.

(٥) تاريخ الفلسفة، ٨/ ١٥٤.

غير المكتملة الباقية في هذه الكائنات[1]، ويُفَصِّل (داروين) في رصد أشكال ذلك التقارب والتشاكل بين الإنسان والحيوانات الأدنى؛ فيشير مثلاً إلى أن "الإنسان قابل لأن يتلقى من الحيوانات الدنيا، أو أن ينقل إليهم، بعضَ الأمراض المعينة، مثل داء الكلب، ومرض الجدري...وخلافهم، وهذه الحقيقة تثبت المماثلة الحميمة الخاصة بأنسجتهم ودمائهم، والموجودة في كل من تركيبهم وتكوينهم،...والقرود معرضة للإصابة بالكثير من نفس تلك الأمراض غير المعدية مثلنا"[2]، وهكذا يتتبع تطبيقات تلك الأدلة المؤيدة لفرضه النظري، حتى ينتهي من ذلك إلى القول: بأن الإنسان قد انحدر فعليًا عن كائنات أدنى يتشارك فيها مع القرود على جهة الخصوص[3]؛ فيقول: "وبهذا الشكل فإننا نستطيع أن نفهم كيف وصل الأمر إلى تقبل أن الإنسان وجميع الحيوانات الفقارية الأخرى قد تم تشييدهم على نفس النمط العام، ولماذا يتم مرورهم من خلال نفس المراحل الأولى من التكوين، ولماذا يقومون بالاحتفاظ ببعض البقايا الأثرية غير المكتملة المعينة المشتركة فيما بينهم؛ وبالتالي فإنه يتحتم علينا أن نعترف بشكل صريح بوحدة نشأتهم، وفي حالة اتباعِ أي وجهةٍ أخرى للنظر؛ فإن ذلك يكون بمثابة الاعتراف بأن التركيب الخاص بنا، وذلك الخاص بجميع الحيوانات الأخرى...ما هو إلاَّ مجرد فخ قد تم نصبه للإيقاع بقدرتنا على الحكم على الأشياء، ويَقْوى هذا الاستنتاج بشكلٍ كبيرٍ إذا ما نظرنا إلى الأفراد التابعة لجميع السلسلة الحيوانية، والتفكر في الأدلة المستمدة من صِلاتهم العرقية أو تصنيفهم، وتوزيعهم الجغرافي، وتعاقبهم الجيولوجي، ولا شيء غير مجرد التحيز الموجود في طبيعتنا... هو الذي يقودنا إلى الاعتراض على هذا الاستنتاج، ولكن قبل مرورِ زمنٍ طويلٍ سوف يأتي الوقت الذي سوف يتم التفكير بأنه من العجيب أن علماء التاريخ الطبيعي، الذين كانوا على دراية تامة بالتركيب المقارن للإنسان، وبالحيوانات الثدية الأخرى: قد كان لهم أن يؤمنوا بأن كل كائن من تلك الكائنات قد كان نتيجةَ العملِ الخاصِ بفعلٍ

(١) انظر: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، تشارلز داروين، ١/ ٨٩، وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٩٢، ٩٣.

(٣) انظر: نفسه، ١/ ١٦٢ وما بعدها.

منفصلٍ من الخلق"[1]؛ وبهذا وضع (داروين) نظريته في التطور في مواجهةٍ مع الحقائق الدينية التي قررتها الأديان السماوية، "فالداروينية لم تجعل فحسب من الضروري التخلي عن الاعتقاد بثبات الأنواع والتخلي عن فكرة إتيان الله بأفعال الخلق المنفصلة...، بل إنها جعلت من الضروري... التخلي عن طائفة من المحاجات الدالة على وجود إله رحيم، والقائمة على تأقلم الحيوانات الرائع البديع مع بيئتها"[2]، وقد انتقل (داروين) من ذلك إلى حقل التفلسف فأخذ على عاتقه مهمةَ تفسيرِ عددٍ من القضايا غير البيولوجية التي تخص الإنسان؛ وذلك لإعادة صياغتها وفقًا لنظريته في أصل الإنسان، ففسر وجود الأديان والإيمان بالله والاعتقاد بالأرواح غير المرئية على أنها لا تجد لها أساسًا طبيعيًا في الإنسان فيقول: "ليس هناك دليل على أن الإنسان كان موهوبًا بشكل بدائي بالإيمان الرفيع بالتواجد الخاص بإله مطلق القدرة"[3]، وعزا وجود هذه الظاهرة عند الإنسان إلى الاعتقاد البدائي بالأرواح التي تقف خلف حركات الطبيعة الغامضة، الملاحظ عند حيوانات أقل رتبةً من الإنسان[4]. كما توجه (داروين) إلى تفسيرِ نشأةِ المعرفة والأخلاق عند الإنسان بكبير عناية؛ وهنا خرج (داروين) –برأينا- عن حقل العلم الطبيعي إلى حقل التفلسف حينما اتخذ من قوله "بتطور الإنسان بفعل الانتخاب الطبيعي" أساسًا يَنظر من خلاله لمختلف القضايا الخارجة عن الملاحظة التجريبية المباشرة للإنسان، ومحاولة ردها إلى أصل بيولوجي مشترك مع كائنات أدنى، فـ "ثمّة اعتقاد ليس غير واسع الانتشار، أنه مع بروز نظرية (داروين) المتعلّقة بالاصطفاء الطبيعي، حدث للفلسفة شيء هامٌّ للغاية، شيء شظّى أساسيًّا الفهمَ الذاتي الفلسفي التقليدي بطريقةٍ أجبرته على التخلّي عن كثيرٍ من اليقينيّات، وقلَبتْ جذريًّا معظم ادعاءاته الأصليّة. هذا لأنّ النظريّة الداروينية

(١) نفسه، ١/ ١٢٠، ١٢١.

(٢) الدين والعلم، ص ٧٠، ٧١.

(٣) نشأة الإنسان، ١/ ٢٤٩.

(٤) انظر: نشأة الإنسان، ١/ ٢٥٢.

-في وصفها العام للعالم- تتضمن البشر، أي الكائنات التي تمارس فعل التفلسف. البشر -وبالتالي العقول البشريّة القادرة على التفلسف- هم نتاج الاصطفاء الطبيعي"[1].

ولا شك أن كل ذلك قد انتهى بـ(داروين) إلى اتخاذ موقفٍ لا أدري للحكم على وجود الإله؛ لكن (داروين) أسهم -بقصدٍ منه أو بدون قصد- في ترجيحِ فرضيةِ انتفاءِ الدورِ الإلهي في الخلق؛ فصادم بشكلٍ مباشرٍ القولَ: بأن الإنسان خَلْق مستقل لغايةٍ أرادها الإله، ووضع تفسيره -القائم على إثبات الصراع من أجل البقاء جزءًا أصيلاً في نشأة الحياة وغايتها على هذه الأرض -من وجهة نظره- في مقابل التفسير الديني القائم على إثبات الغاية من خلق الثقلين وهي العبادة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، وإثبات الغاية من خلقِ ما في السموات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[لقمان: ٢٠]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ١٣]؛ فتعذر على (داروين) -وفق رؤيته- الإيمان بالإله[2] مع الاعتقاد بالتطور؛ فعارض بين الدين والعلم[3].

والذي يعنينا في هذا التمهيد هو التأكيد على أن الداروينية حاولت -من خلال التفلسف- أن تغطي الثغرات الموجودة في نظرية التطور؛ إذ لم يسعفها العلم التجريبي في

---

(١) داروين والثورة الداروينية: الداروينية والفلسفة مدخل عام، نبيل فياض، مقال بموقع جمعية الأوان https://www.alawan.org.

(٢) وقد كان (داروين) في أول أمره يثبت وجود الله (انظر مثلا: أصل الأنواع "ترجمة: أميرة السيد" ص٦٩٣ وما بعدها) ثم انتهى إلى اللاأدرية (انظر كتاب: داروين لـ مايكل ريوس ص٢٧٧).

(٣) ومما نراه جديرًا بالذكر هنا أن بعض المواقف الدينية بدأت تنظر إلى الداروينية بشيء من القبول؛ في محاولة منها لإزاحة ذلك التعارض -لديهم- بين العلم والدين، فنشأ اصطلاح التطور الموجه الذي يقول بأن الخالق هو الذي سن الخلق بواسطة التطور ونشأة الكائنات الحية من سلف مشترك، وقد يجادل البعض بأن هذا موقف (داروين) ذاته، والمهم هنا أن ذلك التوجه التوفيقي انبثقت عنه عدةُ محاولاتٍ لتأويل نصوص الكتاب المقدس عند النصارى، والقرآن الكريم بغية استنتاج التطور منها. انظر مثلاً: آدم والتاريخ، علي المخلبي، ص٣٣٣وما بعدها، آدم عليه السلام بين التطور والتطور الموجه، إبراهيم الشحات، ص١٥٧ ومابعد، وأبي آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة لـ عبد الصبور شاهين.

ذلك. وهذه الثغرات الكبرى –عند التحقيق- تُشَكِّلُ ركيزةً أساسية في النظرية، وفي مقدمتها: الجزمُ بالأصل المشترك، وكذا القول بتطور الكائنات عبر ملايين السنين؛ وذلك أن غايةَ ما يثبته العلمُ هنا: تلك الأحفوريات التي تثبت وجودَ كائناتٍ كانت تنقصها بعض الأعضاء، لكنه لا يثبت أن هذه الكائنات هي أصل لأحد الأنواع، فضلاً عن أن يثبت أن هذه الأنواع جميعها تعود إلى أصلٍ واحد. وفي هذه النقطة على جهةِ التحديد تكون الداروينية انتقلت من رحاب العلم إلى حيز التفلسف، ولا نبعد –إن شاء الله – عن الصواب إذا قلنا بأنها –مع مجانبتها العلمَ الذي تدعي التحاكم إليه- لم تحسن التفلسف أيضًا؛ فإن الانطلاق من وجود التشابه لإثبات الجنس المشترك ليس أولى من الانطلاق من الاختلاف لإثبات التمايز وتعدد الأصول، بل هذا الأخير أولى، أو مساوٍ في أقل الأحوال.

ومن خلال انتقال الداروينية إلى التفلسف كان لها آثارها في مجالات الفلسفة المختلفة؛ لعل أهمها ما يتعلق بنظرية المعرفة، والنظرية الأخلاقية، فما مظاهر تلك الآثار...؟

هذا ما سيجيبنا عليه المبحثان الآتيان إن شاء الله تعالى.



المبحث الأول

الآثار الفلسفية للداروينية على أصول المعرفة.

لقد أبدى (داروين) دعمًا لعملية تمديد إطار التفسير التطوري للإنسان بحيث يشمل تفسيرًا لنشأة العقل الإنساني، وهذا بدوره يعكس نظرةً معينةً للعقل ولمصادر المعرفة الإنسانية، ولحدود هذه المعرفة، أي: طبيعة الحقيقة التي يمكن للإنسان الوصول إليها، وهذه النظرة هي ما يمكننا أن نصطلح عليه بالأثر الفلسفي الناتج عن تفسير (داروين) لنشوء العقل الإنساني باعتباره ظاهرةً من ظواهر الحياة.

ففي البداية اعتبر (داروين) أن تفسير القدرات الذهنية هي أهم المواجهات الصعبة التي يمكن أن تُناقَض بها نظريته؛ فنجده يقول: "المستوى المرتفع الخاص بقدراتنا الفكرية، ونزعتنا الأخلاقية تمثل: الصعوبة الكبرى، التي تفرض نفسها، بعد أن نكون قد انسقنا إلى هذا الاستنتاج، حول النشوء الخاص بالإنسان"[(١)]، أي: كونه منحدرًا عن سلف حيواني أدنى منه مرتبة. لكن برغم اعتراف (داروين) السابق فإنه قد أخذ بتفسير نشأة العقل في الإنسان، منطلقًا من أساسٍ مادي محايثٍ يتناسب وتطَوريتَه، فيَعتبر أن الوراثة تشكل سببًا رئيسًا في وجود الذهن لدى الإنسان، فـ"فيما يتعلق بالمميزات الذهنية؛ فإن انتقالها واضح في كلابنا وجيادنا والحيوانات الداجنة الأخرى. بجانب أن المذاقات الخاصة، والعادات، والسلوكيات، والذكاء العام، والشجاعة، والطبع الحسن والسيء وغيرها؛ أشياء يجري بالتأكيد انتقالُها. ونحن نشاهد في الإنسان حقائق مماثلة في كل عائلة تقريبًا، ونحن نعلم في الوقت الحاضر... أن النبوغ الذي يقتضي ضمنًا على التوافقية المعقدة بشكلٍ مدهشٍ لقدراتٍ عالية؛ شيء يميل إلى أن يكون متوارثًا. وعلى الجانب الآخر، فإنه من المؤكد بشكل شديد أن الخبل والقدرات الذهنية المتدهورة أشياء تجري بالمثل في بعض العائلات"[(٢)]؛ ومن هنا نجد (داروين) يلجأ إلى المقارنة بين الإنسان والحيوان لتبرير إمكانية نشوء هذه الملكات المتطورة عن أسلافه من

---

(١) نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ٣/ ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٣٢، ١٣٣.

الحيوانات الأدنى، فـ"بما أن الإنسان يحوز على نفس الحواس التي في حوزة الحيوانات الأقل في المستوى، فإنه من الضروري أن يكون لديه نفس البديهيات الجوهرية. والإنسان لديه أيضًا البعض القليل من الغرائز المشتركة معها مثل تلك الخاصة بالحفاظ على النفس والحب الجنسي...، ولكن ربما كان لدى الإنسان غرائز أقل بعض الشيء عن تلك التي تحوزها الحيوانات التي تأتي في المقام السابق له في السلسلة"(١). لكن برغم إقراره بشيء من الاختلاف الغريزي بين الإنسان وأسلافه، نجده يُصر على أنه يمكن تبرير هذا التطور للملكات الذهنية بالانطلاق من الغريزة عند الحيوان؛ بحيث يعتقد بـ"أنه ليس من الأشياء غير المحتملة أن يكون هناك كمية معينة من التداخل بين الظهور الخاص بالذكاء الحر والغريزة، وهذه الأخيرة تتضمن بعض التعديل الموروث الخاص بالدماغ... من المستطاع لنا أن نتبين أنه في الوقت الذي تصبح فيه القدرات الذهنية متطورة بشكل عالٍ، فإن الأجزاء المختلفة من الدماغ من المؤكد أن تكون مرتبطة عن طريق قنوات معقدة مكونة من أكثر وسائل الاتصال المتبادل حرية، ونتيجة لذلك فإن كل جزء منفصل من المحتمل أنه قد يميل إلى أن يكون أقل إعدادًا بشكلٍ جيدٍ للاستجابة لإحساساتٍ أو تداعياتٍ خاصة، بطريقةٍ محددةٍ وموروثة، وهذا يعني بطريقة غريزية"(٢)، أي أن ترقي القدرات الذهنية متحصل عن مدى ترابط أجزاء الدماغ بحيث يكون التفكيرُ غريزةً أو عادةً، ويكون مدى الانفصال بين هذه الأجزاء سببًا رئيسًا في دنو هذه القدرات؛ ومن هنا هل يمكن لنا "أن نستخف بالقدرات الذهنية الخاصة بالحيوانات العليا، وخصوصًا تلك الخاصة بالإنسان، عندما نقوم بمقارنة تصرفاتهم المبنية على ذكرى الأحداث السابقة، وعلى التوقع، والتفكر، والتخيل، مع تصرفات مماثلة تمامًا يتم تأديتها بشكل غريزي بواسطة الحيوانات الأقل في المستوى، وفي هذه الحالة الأخيرة فإن القدرة على أداء مثل هذه الأفعال قد تم اكتسابها، خطوة بعد خطوة، من خلال القابلية للتمايز الخاصة بالأعضاء الذهنية والانتقاء الطبيعي، بدون أي مقدرة ذهنية واعية من جانب الحيوان في

(١) نفسه، ١/ ٢٠٢.

(٢) نشأة الإنسان، ١/ ٢٠٥.

خلال كل جيل متعاقب. وكما يصر (السيد والاس)[1]، فإنه لا يوجد شك في أن كمية كبيرة من العمل الذهني الذي يتم فعله بواسطة الإنسان هو نتيجة للتقليد وليس نتيجة للتفكر، ولكن يوجد هناك هذا الفرق الكبير بين تصرفاته وتلك التي يتم أداؤها بواسطة الحيوانات الأقل في المستوى، وهي بالتحديد تلك التي لا يستطيع الإنسان أن يقوم بصنعها عند المحاولة الأولى"[2]، وهكذا بحيث يمكن النظر إلى مختلف العمليات الذهنية على أنها متطورة بفضل "الانتقاء/ الانتخاب الطبيعي" نتيجةً للتكيف، فهي شكل متطور لوجودها في الأدنى رتبة من الحيوانات؛ فـإنه "من المعترف به عامةً أن الحيوانات العليا تمتلك ذاكرة، وانتباه وتداعٍ للأفكار، وحتى بعض القدرة على التخيل والقدرة على التفكر. وإذا كانت تلك القدرات، التي تختلف بشكل كبير في الحيوانات المختلفة، قابلة للتحسين، فيبدو أنه ليس هناك أي ابتعاد للاحتمالية في أن يتم استنباط ملكات أكثر تعقيدًا، مثل: الأشكال الأعلى من التجريد والوعي الذاتي وخلافهما، من خلال الظهور والتوافق للملكات الأكثر بساطة"[3]، وهذا ما يمكن رصده بالمقارنة بين حجم الدماغ والقدرات الذهنية ومقارنتها عند الإنسان بأسلافه من الحيوانات الأدنى رتبة[4]، والنتيجة هي أن الملكات الذهنية للإنسان هي نتاج تطور الملكات البدائية الموجودة عند أسلافه بحيث يكون جوهر الفرق هو في الدرجة لا النوع[5]؛ مادام

---

(١) الفرد راسل والاس، عالم طبيعة بريطاني، ومستكشف وجغرافي وعالم أنثروبولوجيا وعالم أحياء، اشتهر بتطوير نظريّة التطوّر من خلال الانتقاء الطبيعي. نُشرت ورقته حول هذا الموضوع بالاشتراك مع بعض كتابات تشارلز داروين في عام ١٨٥٨م، دفع هذا داروين إلى نشر أفكاره الخاصّة في كتاب "أصل الأنواع". قام والاس بعمل ميداني واسع النطاق. وكان يمثل الخبير الرائد في القرن التاسع عشر في التوزيع الجغرافي للأنواع الحيوانية. انظر:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%AF_%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%84_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3.

(٢) نشأة الإنسان، ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) نفسه، ١/ ٢٣٤.

(٤) انظر: نفسه، ١/ ١٦٨ وما بعد.

(٥) انظر: نفسه، ٣/ ٢٢٢.

الإنسان اكتسبها بالوراثة عن أسلافه، وبحسب (داروين) فإن "الظروف التي دعت إلى هذا التفوق... وهي:

١- أن الإنسان حيوان له يد بها إبهام.

٢- أن له عينين في وجهه.

٣- أن له لغة"[1]، بحيث يفسر الرقي في العقل الإنساني على أنه نتج عن تأثير هذه العوامل التي عمقت من تجاربه وأذكت قدراته بحيث نتج عنها عقل الإنسان الحديث حاليًا[2].

وهنا يؤكد (داروين) قضيتين رئيستين:

١- أن العقل الإنساني صورة متطورة لا أكثر من عقل الحيوانات الأدنى رتبة.

٢- أن هذا العقل تكوَّن عبر ملايين السنين أثناء عملية الانتخاب الطبيعي، وبالتالي فإن مبادئ العقل الضرورية هي في صيرورة دائمة، وكذا أحكام العقل بالإحالة والإيجاب والإمكان هي كذلك أيضًا من جهة أنها قابلة للتغيُّر، وبالتالي أحكامه على الأشياء والأفكار من حيث الصحة والفساد.

وهذا التفسير التطوري لنشوء العقل الإنساني قد أخذ في التوسع بعد (داروين) كونه منطلقًا رئيسًا للبحث في المعرفة الإنسانية؛ فنجد أن (هربرت سبنسر)[3] قد رد أصل الحياة إلى الطبيعة، "وليست الطبيعة إلا مادة وحركة تتركب باستمرار إلى الأعقد، وليس الشعور إلا شكلاً من المادة والحركة أكثر تعقيدًا. وكل صور الحياة بدايةٌ ووسطٌ ونهاية، بمعنى أن الحركة

(١) نظرية التطور وأصل الإنسان، سلامة موسى، ص١٤٤ بتصرف يسير.

(٢) ولهذا نجد أن الإنسان لدى (داروين) مرَّ بأنواعٍ متدرجة وسلالات مختلفة حتى ظهوره بالشكل الحالي، وتأثرت قدراتُه وهيْأتُه بجغرافيته التي وجد فيها. انظر في هذا مثلاً: تطور الجنس البشري، محمد السيد غلاب، ص١٩٢ وما بعدها، حضارات ما قبل التاريخ، خزعل الماجدي، ص٤٨٣ وما بعدها، تطور الإنسان، برنارد وود، ص٧٣ وما بعده، ونفس المرجع، ص١٧١- ١٧٤.

(٣) هربرت سبنسر (١٨٢٠م-١٩٠٣م)، فيلسوف إنجليزي، وهو أستاذ المذهب الوضعي، اهتم بإعطاء العالم تفسيرًا معتمدًا على العلم والعقل، له العديد من المؤلفات، منها: المبادئ الأولى، مبادئ البيولوجيا، مبادئ علم النفس، مبادئ علم الاجتماع، معطيات الأخلاق. انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص٣٥٦.

وكل صور الطاقة تتبدد بفعل قانون التطور والانحلال"(١)، والعقل الإنساني بالتالي صورةٌ لحركة المادة وتطورها إلى الأعقد، لكن هذه الحركة المادية للعقل لا تحمل في ذاتها غائية قبلية وإنما -كما أصَّل داروين- هي نتاج الانتخاب الطبيعي الرامي للتكيف مع الطبيعة وحفظ البقاء؛ ولذا اعتبر (سبنسر) بأن الذكاء هو أن الكائن "يكون قادرًا على تكييف طبيعته بحيث يكون أقدر على التعامل مع بيئته"(٢). كما اعتبر (هنري برجسون)(٣) أن "الطبيعة لم تُخلق من أجل الإنسان، فنحن نكافح كبقية الأنواع الأخرى، وقد كافحنا ضد هذه الأنواع. وأخيرًا لو أن تطور الحياة اصطدم في طريقه بعقباتٍ أخرى، ولو أنه انقسم تبعًا لذلك بطريقةٍ مختلفة؛ لَكُنَّا مختلفين إلى حدٍ ما عما نحن عليه الآن من الناحية الجسمية والناحية المعنوية"(٤)، فالسبب في نشوء العقل يعود إلى فائدةٍ عمليةٍ بالدرجةِ الأولى؛ لأن "وظيفة العقل الإنساني هي العمل والوعي بهذا العمل والاتصال بالحقيقة الواقعية"(٥)، ومن هنا "سوف يبحث العقل عن الشيء الذي يمكن أن يكون أكثر فائدة لهذا الكائن،...فالذكاء ينصب جوهريًا على العلاقات بين الموقف الذي يعرض للكائن ووسائل استغلال هذا الموقف...، وهكذا فإن المعرفة الصورية ليست محدودة بما هو مفيد عمليًا، مع أنها ظهرت إلى هذا الوجود من أجل تحقيق الفائدة العملية"(٦).

وهذا الإقرار الأخير من (برجسون) هو الجوهر الدارويني في المسألة، والذي ينتهي إلى أن الانتخاب الطبيعي -فيما يتعلق بأحكام العقل وتصوراته- غير محكومٍ بالثبات، وإنما بما يمليه الواقع، وبالتالي فالصيرورة والسيولة هي الخاصية الكامنة في أعماق العقل الإنساني.

---

(١) موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبد المنعم الحفني، ١/ ٧١٨.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٧١٨.

(٣) هنري برجسون (١٨٥٩-١٩٤١م) فيلسوف فرنسي، لقيت فلسفته انتشارًا واسعًا في حياته، يرى بالتحول الدائم في الكون. انظر في فلسفته: برجسون، لـ د/ زكريا إبراهيم، معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص١٦٢.

(٤) التطور الخالق، هنري برجسون، ص٢٦٠.

(٥) المرجع السابق، ص١٩٢، وانظر من نفس الكتاب: ص١٤٠ وما بعد.

(٦) نفسه، ص١٥٤، ١٥٥.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الفكر العربي قد شهد تأثرًا ومحاولةَ تأصيلٍ فلسفي لتصور (داروين) لتطور العقل الإنساني حيث اعتبر (شبلي شميّل)[1] أن الإنسان -كما قرر داروين- متطور عن كائن أدنى منه مرتبة، وأن العقل كسائر ظواهر الحياة وُجِد لأجل البقاء بفعلِ الانتخاب الطبيعي؛ ولذا فإن العقل هو فِعْلٌ "من أفعال الدماغ، وعلى هذا يصبح النظر في العقل كالنظر في وظائف الأعضاء باعتبار أنه عمل مادي"[2]، وقد نفى (شميّل) أيَّ وجودٍ لمقولاتٍ بدهيةٍ ضرورية حاصلة في العقل الإنساني؛ بل يقرر أن "المعاني في العقل ليست غريزية بل مكتسبة وصادرة عن المادة بواسطة الحواس...إن المعنى العقلي ليس إلا تأثيراً مادياً، أو هو صورة المادة المرتسمة في الدماغ كما ترتسم الصورة في المرآة"[3]، والعقل ما هو إلا نتاج لهذا الدماغ المتطور، وبالتالي ليس فيه أي ثبات، والمعرفة ما هي إلا ما تطبعه الحواس في الذهن، ولا وجود لمقولاتٍ قبليةٍ في الذهن. هذا كما أن (إسماعيل مظهر)[4] قد وافق على تقرير (داروين) بأن الإنسان منحدر عن أصل حيواني أدنى منه مرتبة، وأن عقله يسري عليه هذا

---

(١) شبلي شميل (١٨٥٠م-١٩١٧م)، طبيب ومفكر لبناني اشتراكي علماني، بدأ حياته كاثوليكيا، كانت زيارته لفرنسا هي المحطة التي التقى فيها بأفكار (داروين)، وتعمقت لديه الفلسفة المادية، أنشأ مجلته العلمية مجلة الشفاء عام ١٨٨٦م، وساهم في تأسيس جريدة المستقبل، وهو من أشهر مناصري الداروينية. أهم أعماله: ترجمته لشرح بخنر على مذهب داروين. ومن أعماله: فلسفة النشوء والارتقاء، ورسالة في الهواء الأصفر والوقاية منه وعلاجه. انظر: شخصيات وتواريخ في السياسة والفكر والأدب والفن، كريم مروة، ١/ ١١٥-١٢١، والفصل الثالث من كتاب "قراءة داروين في الفكر العربي" لـ مروة الشاكري، ص٢١٣ – ٢٦٥.

(٢) نظرية التطور في الفكر العربي الحديث، زينب عبد الرحمن، ص ١٣٠.

(٣) رسالة الحقيقة ضمن فلسفة النشوء والارتقاء، شبلي شميل، ص ٢٦٥.

(٤) إسماعيل مظهر محمد عبد المجيد (١٨٩١م ـ ١٩٦٢م)، مفكر مصري، والشائع أنه من أصل تركي، وهو أحد أعلام النهضة الثقافية الحديثة في الوطن العربي، كان من أشد المؤيدين لداروين، وترجم كتابه "أصل الأنواع"، رد على شبلي شميل والأفغاني. شارك في إنشاء المجمع المصري للثقافة العلمية، له العديد من المؤلفات والترجمات، انظر: شخصيات وتواريخ في السياسة والفكر والأدب والفن، كريم مروة، ١/ ١٥١-١٥٩، وتقديم أحمد الهواري لترجمة إسماعيل مظهر لكتاب "أصل الأنواع".

القانون التطوري في نشأته وإن لم يوافق (شميل) في كسبية المقولات العقلية ونفي المعرفة الصورية للإنسان[1].

وفي العصر الراهن يظهر التصور الدارويني لنشوء العقل الإنساني مستندًا إلى العلم، لاسيما علم الأعصاب الذي أصبح بإمكانه "تسجيل النبضات الكهربائية، ليس فقط لنشاط المراكز العصبية في المخ، بل أيضًا لنشاط أي خليةٍ عصبية"[2]، بحيث يعتبر الداروينيون أن "المخ ما هو إلا عضو آخر من أعضاء الجسم... يقوم بوظيفته، فعندما تُصدر خلايا المخ إشاراتٍ كهربائية؛ فإنها تحرك العضلات والأحاسيس والمشاعر المختلفة، ودليلهم على ذلك أن علم وظائف الأعصاب قد أثبت أن كل أفعال الإنسان وحتى مشاعره ماهي إلا نتاج لتفاعلاتٍ كيميائيةٍ في مجموعةٍ من الخلايا العصبية... تخرج على إثرها نبضاتٌ كهربائية، تنعكس في صورةِ حركةٍ أو انفعالٍ ما، ولا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه عقل...أي إنه لا يوجد فارقٌ بين المخ والعقل"[3]، فكلاهما شيء مادي، والوعي ليس إلا زيادة حجم الدماغ كما قرر ذلك (داروين) من قبل.

وفي منحى آخر تفسر نظرياتٌ أخرى نشأةَ العقل الإنساني بسببِ وجودِ الإنسانِ في مجتمعٍ أكبر من أسلافه؛ ولهذا تطلبتْ "إدارةُ العلاقاتِ الاجتماعية في هذه الزمرة...توفرَ دماغٍ كبيرٍ وذكاء متوافق معه"[4]، بينما رد آخرون نشأةَ العقل الإنساني إلى قدرته على التخيل؛ بحيث يَعتبر أصحابُها بأن "هناك في مصدر القابليات البشرية العديدة لخلق اللغة والفن...آليةً إدراكيةً فريدة، إنها عملية عقلية... لديها قابلية صوغ هذا النمط الخاص من التمثلات التي هي الصور العقلية...، لقد طَوَّرَ الذهنُ البشري بشكلٍ ملحوظٍ هذه القابلية على

---

(١) انظر: ملقى السبيل في شرح نظرية داروين، إسماعيل مظهر، ص٣٨٤، ورسالة الحقيقة ضمن فلسفة النشوء والارتقاء، شبلي شميل، ص١٣٤- ١٣٩.

(٢) الحقيقة والخيال في نظرية التطور، حسن نصرات، ص٤٤٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥٠، وانظر: كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، ص٣٠٨.

(٤) ثورة في فهم أصول البشر وثقافاتهم، جان فرانسوا، ص١٠٦.

التخيل...فأصبحتْ قوةً رافعةً من أجل التأثير في العالم"[1]، فكل هذه التفسيرات تعود إلى تصورٍ لتطور العقل الإنساني، لا النظر إليه على أنه ميزة تَفَرَّد بها دون سائر الخلق، فضلاً عن أن تكون ضروراتُ العقل قبليةً متجاوزةً للزمان والمكان، وإنما اكتسبها الإنسان عن أسلافه من الحيوانات الأدنى رتبة، وتطور العقل لديه بشكله الحالي بفعل الانتخاب الطبيعي.

ولاشك أن هذا التصور التطوري لنشوء العقل تلزم عنه نتائجُ تتعلق بالقدرات الذهنية للإنسان التي تفسر كيفية معرفته بالحقائق، أي مصادر المعرفة؛ وبخصوص هذا نجد أن الداروينية -انطلاقًا من منطقها التطوري للعقل الإنساني- تُقِر بصورةِ العقلِ التركيبية المعقدة التي تُمَكِّن من تحليل الإدراكات الحسية الأولية، بحيث ترى أن "العقل مبني بطريقة معينة ليفكر ويعمل: وهذه البنية دالة من النجاح التطوري الماضي، وبذا فإننا اليوم قادرون على استخلاص المغزى من الخبرة بطرق تساعدنا على البقاء والتكاثر"[2]؛ ومن هنا حاولوا تبريرَ وجودِ مبادئنا الأولية -كالسببية والهوية وعدم التناقض وغيرها- على أنها نتاج انتخاب طبيعي يهدف إلى تَكَيفنا ونجاحنا في الاستمرار في البقاء، فـ"نحن نفكر بطريقة سببية بسبب ماضينا التطوري...الشخص الذي يرى طفلاً يصرخ؛ لأنه احترق بالنار، فهو سيقول إن النار قد سببت الألم؛ لأن ذلك هو التفكير الذي أدى إلى بقائنا. وبمعنى آخر: لابد أن نفكر بطريقة سببيةٍ؛ لأن ذلك هو السبيل الوحيد الذي يقود إلى النجاح الهائل"[3]، فأسلاف البشر أمكنهم بالاختبار الاتفاق حول هذه المبادئ كونها سبيلاً موصلاً للنجاح في البقاء؛ ودلالة هذا تكمن في أن الداروينية تنكر الوجود الفطري -المستند بالطبع إلى الخالق- لهذه المبادئ، وتقرر بأنها

(١) المرجع السابق، ص١١١،١١٠، بتصرف يسير. ومن الجدير بالذكر أن هذا المنحى التطوري في تفسير نشأة القدرات الذهنية لدى الإنسان قد برز بشكل ملحوظ في العصر الحديث في مجال الاهتمام بنشأة اللغة عند الإنسان خاصة، واعتبارها أهم المشاكل التي تواجه التفسير الدارويني. وهذا الأمر جدير بدراسةٍ مستقلة؛ لما له من أثرٍ بالغٍ في التعامل مع نصوص الوحي. انظر: نشأة الإنسان،١/ ٢٣٥، الانتخاب اللساني، عبد الفتاح أحمد يوسف، الداروينية اللغوية، عبد المنعم جدامي.

(٢) داروين، لريوس، ص٢٣٥.

(٣) داروين، لريوس، ص٢٣٥.

مُتَكَونٌ بعدي، احتلت مكانتها بوصفها قوانين للعقل من خلال استقراء فاعليتها في الوجود، فإن "الجهاز المعرفي لنوعنا يمثل تَكَيفًا خاصًا في الوسط البيئي الملاحظ، مما يَنتج عنه تداخلٌ عميق أساسي بين الكائن الحي وبين ما يحيط به"(١)؛ وهو الأمر الذي يفسر الالتقاء البراجماتي مع التطور؛ إذ إن الداروينية -بمنظورها هذا للعقل- قد وفرتْ الأساسَ الفلسفي للبراجماتية الذي يرى بأن الحقيقة هي كذلك بفضل نتائجها(٢)، وهكذا بحيث "يؤدي العمل على التفكير بواسطةِ عالَمٍ سيكولوجي تطوري بالتأكيد إلى أن يظن المرء أن القواعد الدقيقة للتفكير التي نستخدمها أولية تجريبية في الأساس"(٣)؛ ولذا فإن الداروينية تشير إلى مفهومٍ لطبيعةِ الحقيقة يكمن في التأكيد على: أن الحقيقةَ حسيةٌ ومحصورة في الظاهر النسبي؛ فهي حسية؛ لأن (داروين) يصادر على مصادر المعرفة الضرورية، ويجعلها تجريبيةً بالأساس، وظاهرية؛ لأن (داروين) يجعلُ المعرفةَ في الواقع كما هو، فالوجود واحد(٤) هو الظاهر؛ فـ"إن الجمجمة البشرية -بعد عمليةٍ تطوريةٍ طويلةِ المدى- أصبحت مثلها مثل كهف (أفلاطون)(٥) كسجن منيع، لا يَسمح لها بأن ترى على خلفيتها إلا تعاقب ظلال الأشياء"(٦)، وهي نسبية؛ لأن الداروينية -بإقامتها التطور أصلا للحياة- جعلتْ التَّغَيُّرَ هو مبدأ الحياة الرئيس -كما زعم ذلك (هيرقليطس)(٧) قديمًا- فـ"التطور بمعنى التغير يطال كلَّ ما في الوجود مع مرور

(١) نظرية التطور تاريخ ومجادلات، دينيس بيكان وسيدريك جريمو، ص ١٣٩.

(٢) انظر: داروين، لريوس، ص ٢٢١- ٢٢٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٨.

(٤) انظر: داروين وشركاه، بيبر تويبه، ص٧٨.

(٥) أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ قبل الميلاد) من أشهر فلاسفة اليونان، وهو أستاذ أرسطو، وتلميذ سقراط، صاحب نظرية المثل، وهو من أهم من أثر في الفكر الفلسفي على مدى العصور. انظر: قصة الفلسفة اليونانية ص١١٥- ١٧٢، موسوعة أعلام الفلسفة ص٦١.

(٦) نظرية التطور تاريخ ومجادلات، ص١٣٩.

(٧) فيلسوف يوناني، عاش في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، كان يرى بفكرة الاستقلال الذاتي للعالم، وهو من أوائل الفلاسفة الذين وصلت إلينا شذرات من أعمالهم. انظر: تاريخ الفلسفة، إيميل برهييه (١/ ٧٢) وما بعدها، معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٦٩٧، هيرقليطس فيلسوف اللوغس لـ الطيب بوعزة.

الزمن"[١]. والتطور بوصفه هكذا لا يمكن له أن يقرر ثبات الحقائق التي يصل إليها الإنسان، وذلك راجع إلى أنه "إذا كان العقل مكتسبًا كان عُرضةً للانخداع؛ وذلك لعدم تبينه الأشياء كما هي في كل الأحوال. وطالما أن العقل يسير في الطريق الذي يألفه، وينمو على المبادئ التي ينشأ فيها صحيحة كانت أم فاسدة؛ فإنه في هذه الحالة يكون أبعد ما يكون عن الحقيقة المنشودة"[٢].

ونفي قدرة العقل -هنا- على الوصول إلى المعرفة بالأشياء هو نفي معارفه عن أن تكون حقائق؛ فبالنسبة للداروينية فإننا "إذا عرفنا أننا قردةً اكتسبتْ تأقلماتٍ لتغادر الأدغال وتحيا في السهول؛ فليس هناك من سببٍ وجيهٍ للتفكير في أن كل مشكلة محلولة بالنسبة لكائنات مثلنا"[٣]؛ بحيث تبقى الأمور في حدود الممكن، ومن هنا عُرفتْ الداروينية في مجال الأبستمولوجيا بتوافقها مع المنهج العلمي الحديث الذي يقرر نسبية الحقائق[٤]؛ لكونها نزعتْ وثوقيةَ العقل، وجعلت "الصدفة/ العشوائية" مبدأً رئيسًا في الوجود؛ وهذا يظهر في قول داروين: إن "لكل نوعٍ من الأنواع خِصِيَّة يتفوق بها على غيره من الكائنات...، وغالبًا ما نعجز في كل الحالات عن معرفة الصراط السوي الذي يجب أن نسلكه في هذه السبيل، مما يجعلنا نعتقد اعتقادا ثابتًا أننا نجهل -الجهل كله- سننَ تبادل الصِلات بين الكائنات العضوية عامة، ويكاد يكون هذا الاعتقاد من الضرورات، ولو أن التسليم به من المعضلات"[٥]، فهنا يشير (داروين) إلى أن: "الإقرار بالجهل المطلق لسببية التغيرات"[٦] بين الكائنات هو التفسير الملائم لعمل الانتخاب الطبيعي، ثم يعود بشكلٍ صريحٍ إلى جعل الصدفةَ سببًا مفسرًا

(١) الحقيقة والخيال في نظرية التطور، ص٤٦٦، بتصرف يسير.

(٢) نظرية التطور في الفكر العربي الحديث، ص١٣١.

(٣) داروين، لريوس، ص٢٤٠.

(٤) انظر: داروين، لريوس، ص٢٢٦-٢٣٤، نظرية التطور في الفكر العربي الحديث، ص١٢٧وما بعدها، نظرية التطور تاريخ ومجادلات، ص٢١٥-٢١٩، التطور المشروع الإناسي لداروين، عبد اللطيف الشقوري، ص١٩٩وما بعدها.

(٥) أصل الأنواع، تشارلز داروين، ترجمة أميرة سيد، ص٢٠٠، ٢٠١.

(٦) التطور المشروع الإناسي لداروين، ص٢٤١.

لانحراف الصفات في الأنواع الأولية؛ لتُحدث هذه التغيرات -على مدىً زمني طويل- تحولاتٍ كبرى، أي: ولادة أنواع أخرى؛ فيقول: "والمصادفة العمياء -تلك السُّنة المبهمة المستغلقة التي ندعوها مصادفة- ربما تسوق ضربًا من الضروب إلى التحول عن صفات أصوله"[1]، فيصير حدوث الأنواع نتاجًا محضًا لآلية التناحر من أجل البقاء، وهذا النتاج لا يمكن أن يُفسَّر بسببٍ غير ذاته، فيقال وفق المنطق الدارويني: "إن الأنماط السلوكية للحيوانات هي الناتج النهائي لأنماط نشاطها العصبي، وهي بالقطع متكيفة مع طرق عيش هذه الحيوانات"[2]؛ فإن "قانون البقاء للأصلح -الذي يعمل على الاختلافات العشوائية- كان غير موجه بالأصل"[3].

وقد حاول الداروينيون إيجاد مكمن مادي للتدليل على عمل الصدفة بيولوجيًا، و"بحلول عام ١٩٧٠م بدا للعديد من علماء البيولوجيا أن طفرات الـ DNA هي المصدر الجوهري لاختلافات (داروين) العشوائية، وبدا أنه يؤكد أن التطور غير موجه"[4]، فيُقال: "بأن نتيجة الطفرات وإعادة التركيب الجيني، هي عشوائية وغير موجهةٍ لأي غرضٍ محدد"[5]، محدد"[5]، والمهم -هنا- أن الداروينية بتأكيدها على العشوائية تقرر بلا شك صيرورةَ المعارف إلى ما لا نهاية؛ إذ "التطور عدم قابليةٍ أصيلةٍ للارتداد"[6] إلى الوراء من جهة، وغير قابلٍ للثبات في الحاضر والمستقبل من جهةٍ أخرى.

---

(١) أصل الأنواع ترجمة أميرة سيد، ص٢٤٠.

(٢) التطور مقدمة قصيرة جداً، برايان وديبورا تشارلز وورث، ص٧٧.

(٣) أيقونات التطور، جوناثان ويلز، ص٢٣١.

(٤) المرجع السابق، ص٢٣٢، وانظر: صندوق داروين الأسود، مايكل بيهي، ص٦١ وما بعدها، حقيقة التطور، كاميرون إم.سميث، ص٤٧ وما بعدها، داروين والتطور، دعاس ناصيف، ص٢٠٠-٢٠٧، و٢٢٦،٢٢٥، و ٢٥٨. ومن الجدير بالذكر أن تشالرز بيرس كان قد حاول بالفعل تطوير موقفه من المصادفة وفق منظور تطوري. انظر في هذا: فلسفة المصادفة، محمود أمين، ص١٥٦ وما بعد، وانظر أيضا تطوير ريتشارد دوكنز لها في كتابه: صانع الساعات الأعمى.

(٥) أشهر ١٠ خرافات حول التطور، كاميرون سميث وتشارلز سوليفان، ص١٤١.

(٦) فلسفة المصادفة، ص١٥٩.

وبالتأمل في هذه الأثار الفلسفية اللازمة منطقيًا عن تطورية الإنسان التي زعمها (داروين)؛ نجد أنها تنتهي إلى نتائج تؤدي إلى انهيار الداروينية من أساسها كما حدَس (داروين) ذلك بالفعل عندما قال: "ولكن من الممكن الدفع بأن مادام الإنسان يختلف بهذا الشكل الكبير في قدرته الذهنية عن جميع الحيوانات الأخرى؛ فإنه لابد من أن يكون هناك خطأ في هذا الاستنتاج"[1]، أي تطور الإنسان. وحجة تأكيد صحة انهيار الداروينية من خلال ما يلزم عنها هنا[2] تقوم على التركيز على فكرتين رئيستين في تفسير الداروينية لمصادر المعارف ولطبيعة المعرفة؛ إذ نجد بدايةً أن محاولة تفسير الداروينية للوعي البشري بأنه نتاج آليةِ الانتخاب الطبيعي الذي يهدف للفائدة ينفي إمكانية أحقية استنتاجاتها، أي: إنه لا تلازم بين "الحقيقة/ الصدق" و"المنفعة"، فقد تكون المنفعة تخالف الواجب أو الحال كما هو في الواقع، وهذا النوع من النقد كان قد واجه به المسيحيُّ آلفين بلانتينجا الداروينيةَ؛ حيث "يجادل بأن التطور عند (داروين) لا يكترث بالصدق، ولا يهتم إلا بالبقاء والتكاثر بنجاح،...وبذا لا يوجد سبب يدعو فكرنا ومقدرتنا المعرفية أن تخبرنا بالصدق حول العالم، وكل ما نحتاجه هو أن تخبرنا ما الذي نحتاجه لنعتقد ونبقى ونتكاثر"[3]، وكما تباعد الداروينية بين التطور والحقيقة، فهي تطعن في العقل الإنساني ذاته؛ إذ إن (داروين) نفسه كان قد أقر "بأن الانتخاب الطبيعي-وبالحري بقاء الأصلح- لا ينطوي ضرورةً على تحولٍ ارتقائي، بل إنه يقتصر على الانتفاع بالتحولات إذا جدت وكانت ذات فائدة لكل كائن حي في ظل علاقاته الكثيرة المعقدة في الحياة"[4]، ومادام أنه لا ضرورة في ارتقائية نتاج الانتخاب الطبيعي فإن النظر للعقل

---

(١) نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ١/ ٢٠٠.

(٢) لن نقوم هنا بتقديم حقائق علمية مضادة لإثبات (داروين) التشابه بين الحيوان والإنسان في القدرات الذهنية؛ فذلك له مجال آخر لا يدخل في البحث الفلسفي. انظر للتوسع في هذا النوع من النقد العلمي للداروينية مثلاً: حافة التطور، مايكل بيهي، التطور نظرية ما تزال في أزمة، مايكل دنتون، أيقونات التطور، جوناثان ويلز، العلم وأصل الإنسان، آن جوجو وآخرون، تصميم الحياة، ويليام ديمبسكي وجوناثان، خرافة التطور، روبرت جميس، ثم صار المخ عقلاً، عمرو شريف.

(٣) داروين، لـ ريوس، ص٢٤٢.

(٤) أصل الأنواع ترجمة أميرة سيد، ص٢٥٧.

للعقل بوصفه نتاجًا ارتقائيًا للطبيعة لا يجد له مستندًا حقيقيًا في الداروينية، وقد عبر (داروين) بالفعل عن ذلك فيما عُرِف بـ"شك داروين"[1] الذي يقول فيه: "(وبالنسبة لي ينشأ الشك المروع دائمًا حول الإيمان الراسخ بعقلِ الإنسان، والذي تطور من عقل حيوانات أدنى، وهل له أي قيمة؟، أو هل هو جدير بالثقة على الإطلاق؟، وهل يستطيع أي أحد أن يثق في الإيمان الراسخ بعقلِ قردٍ إذا كان هناك أي إيمان راسخٍ في مثل هذا العقل؟). وفي الحقيقة سحب (داروين) نفسه في لحظتها كمرجع يعتمد عليه في مثل هذه المسائل الفلسفية، لكن ظل هذا الموضوع الأخرق بلا إجابة"[2] وهو لا يزال بالفعل كذلك.

وترتيبًا على هذا فإن مزاعم محاولة البرهنة على الداروينية منطقيًا هو نوع من البرهنة التي لا تنتج ما دامت استنتاجات العقل غير مستلزمة للحقيقة في ظل الداروينية، ولأنها تصادر على ضرورات العقل وتصادر على تفسيراته البدهية البسيطة. وهذا مؤكَّد لأن (داروين) -كما رأينا- صادر على السببية بافتراض فاعلية المصادفة في توليد التغيرات، بل نجده ينفي السببية أيضًا عندما يطلب التسليم الأولي بحقيقية التطور عندما يقول مثلاً: "ولكنَّ كل شخص يعترف بالمبدأ الخاص بالتطور: لابد من أن يرى أن القدرات الذهنية الخاصة بالحيوانات العليا...قابلة للترقي"[3]، فـ(داروين) هنا ينفي سببية تطوير الانتخاب للعقل بالمطالبة بالتسليم الأولي بالتطور، "والداروينيون عندما يقولون إن نظرية التطور هي حقيقة، وأيضًا نظرية، يقصدون بذلك، أن التطور حدث ولا محل لمناقشة حقيقة حدوثة، أما كيف حدث؟ فهذا هو ما يمكن أن يُطرح للبحث"[4]، كما يظهر أيضًا في استناد (داروين) -للتدليل على التطور بالانتخاب- على السجل الأحفوري دون أن يكون له في زمنه -على الأقل- أي مستند تجريبي فعلاً؛ "فإيحاءات (داروين) في كتابه أصل الأنواع بأن كثيرًا من حلقات الوصل قد تكون مدفونة وتنتظر من يكشف عنها، جاءت...من واقع توالي الاكتشافات الأحفورية أثناء

(١) داروين، لـ ريوس، ص٢٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٣) نشأة الإنسان، ٣/ ٢٢٢.

(٤) الحقيقة والخيال في نظرية التطور، ص٤٦٩.

عمله على كتابه؛ مما دفع إلى تأكيد فكرة النقص في صورة الحياة السالفة التي حصلنا عليها من الأحفورات"(١)، ولهذا فإنَّ جعلَه السجل الأحفوري دليلاً يقتضي التسليم قبل تقديم الدليل على أنه كذلك؛ وهذه مصادرة صريحة على المنهج العلمي؛ من جهةٍ أنه بنى نظريةً على ما يزعم بأن المستقبل سيأتي بالدليل عليها. ومن هذه الجهة اعتبر بوبر "أن الداروينية ليست نظرية علمية قابلة للاختبار، بل برنامج ميتافيزيقي للبحث"(٢)؛ فإنه "بمعايير النظريات العلمية القابلة للاختبار فإن فرضية التطور غير محددة البتة ومعرَّضة لكل أنواع النقد"(٣)؛ لأنها تتطلب رجوعًا إلى الوراء اللانهائي؛ وذلك مستحيل.

إلى جانب هذا فإن (داروين) يشكك في النظر العقلي وينحاز إلى الواقع الخارجي، وهذا بدوره يستلزم المصادرة على قوانين العقل، وينتهي إلى التسوية بين الأمور من حيث الصواب والخطأ، المستلزم ضرورةً لنفي وجود الخطأ؛ حينما جعل المعرفة محصورة على الظاهر؛ ففي الحياة الواقعية -كما تزعم الداروينية- "لا يمكننا أبدًا أن نتحقق من أن كل شيء حقيقي فيما يبدو لكن ليس واقعيًا. ونحن لا نستطيع مغادرة ما أنتجه التطور من أجسادنا أبدًا؛ لذلك فمن الصعب بشكلٍ ما معرفة ما الذي يعنيه قول المرء أن كل أفكارنا خاطئة"(٤)، وعليه فـ "طالما كانت المعلومات فعَّالة مؤثرة؛ فإنها قد تكون زائفة أو حقيقية بالقدر نفسه"(٥).

وهو أيضًا يصادر على قانون الهُوية حينما يقف بالضد من قضية الأنواع الثابتة المستقلة، فـ"مِن البَيِّن أن المواليدي (الباحث الطبيعي) إذا تدبر أصل الأنواع، وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية مِن الخِصِّيَّات المتبادلة، وما بين أجنتها من التشابه، واستيطانها، أي: اقتسام الكائنات الحية بقاع الأرض وتوزعها فيها، ثم تعاقب وجودها في خلال الأزمنة

(١) التطور نظرية في أزمة، مايكل داتون ص٢٠٠.

(٢) التطور المشروع الإناسي لداروين، ص٢٢١، وانظر: منطق البحث العلمي، كارل بوبر، ص١٠٩ وما بعد، نظرية التطور، هيثم طلعت، ص٩٤-٩٨.

(٣) التطور نظرية علمية أم إيديولوجية، عرفان يلماز، ص٣١، وانظر: المرجع السابق، ص٢٢١ وما بعد.

(٤) داروين، لـ ريوس، ص٢٤٥.

(٥) المرجع السابق ص: ٢٤٢.

الجيولوجية،... انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تخلق مستقلة منذ البدء، بل نشأت كالضروب من أنواع أخر"[(١)]، وهو بهذا يقرر الصيرورة بوصفها قانونًا للوجود يقوم على وهم استمرارية الطبيعة الوظائفية[(٢)] الذي بإمكانه أن يبرر زعمه بالأصل المشترك للكائنات؛ فـ"إن كان كثيرٌ من الصفات المتناظرة والخطط الأساسية بالفعل غيرَ تكيفية ولم تخدم أي غاية وظائفية نوعية؛ عندها تصبح كامل الرواية الداروينية مجرد بيت من الورق. يمكن رفض الداروينية بهذا السبب وحده"[(٣)]، وما سبق يؤدي بنا إلى استنتاج: أن محاولة تبرير الداروينية وجود المبادئ العقلية بأنها أثر لفاعلية "التطور/ الانتخاب الطبيعي" هو إقرار وهمي بوجودها أصلاً؛ إذ لا يمكن للتطور أن ينتج ما خاصيته "الثبات"، وإنما "السيولة" التي تشَكِّلُ عماد النظرية الداروينية. كما لا يمكنه أن ينتج التعقيد والنظام؛ لأنه قائم على العشوائية، فـ"المشكلة الأساسية في (آلة الحظ الهائلة) التطورية، أننا نعرف من كافة الخبرات أن البحث عن حلول من خلال طرائق البحث العشوائي البحتة غير فعال ولا أمل منه"[(٤)]. ولهذا تذهب الداروينية إلى تكلف ما لا يقره العقل، بل والمنهج العلمي من التفسيرات، وتقديمها على أنها برهنة عقلانية!. فمن ذلك تكلف التفسيرات المعقدة بقصد نفي الغاية الإلهية، وهذا كله بلا شك يتعارض مع ما يقرر الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف: ١٩١]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٧]، وأخبر في شأن الإنسان فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم

---

(١) أصل الأنواع ترجمة أميرة سيد، ص١١٩ بتصرف يسير.

(٢) حيث برر (داروين) وجود أعضاء في الكائنات الحية لا تملك أي وظيفة للكائن الحي؛ بأنها بقايا لتطوره القديم، وقد لقي تبريره هذا نقدًا واسعًا، انظر في ذلك: التطور ما تزال نظرية في أزمة، ص٩٠، أعضاء عديمة الفائدة، جيري بيرجمان.

(٣) التطور ما تزال نظرية في أزمة، ص٢٦٨.

(٤) التطور نظرية في أزمة، ص٣٧٥.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٩٩]، وقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[الرحمن: ١٤]، وعنه ﷺ أنه قال: "إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر... على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء"(١)، وقال ﷺ:"خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا"(٢)، واختلف في الضمير في صورته فـ"قالت طائفة يعود إلى الله تعالى، ويكون المراد إضافة تشريف واختصاص كقوله: ناقة الله"(٣)، وقال ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب"(٤)، فالوحي يخاطب ضرورات عقولنا بهذا ويردنا إلى مقتضى السببية، وهو: ضرورة وجود الخالق لكل مخلوق، بينما تذهب الداروينية إلى افتراض "علاقةٍ سببيةٍ دون سبب"(٥)؛ وعندئذ تضع تفسيراتها لنشأة الحياة وتبرير التطور في مناقضة مع أبسط ضرورةٍ يقتضيها التفسير حتى يكون منطقيًا، وهي: **البساطة**؛ إذ من المسلم به علميًا أن "للمنطوقات الأبسط (إذا كانت المعرفة هي ما نريد) قيمة أكبر من تلك الأقل بساطة؛ لأنها تنطق أكبر؛ ولأن مضمونها التجريبي أكبر؛ ولأنها أخيرًا أفضل قابلية للفحص"(٦).

ونجد من جهة أخرى أن الداروينية إذ تفترض "أن الحياة بدأت بكائنٍ حي وحيد الخلية، تطور إلى سمكة، والسمكة تطورت بدورها إلى حيوان برمائي، ثم حيوان زاحف، ثم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، ٤/ ١٣٢(٣٣٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، ٤/ ٢١٨٣(٢٨٤١).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٦/ ١٦٦.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن،٤/ ٢٢٢(٤٦٩٣)، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ١٧٢(١٦٣٠).

(٥) التطور والأسئلة الكبرى، دافيد ن.ستاموس، ص١٠٧.

(٦) منطق البحث العلمي، ص١٧١.

طائر، ثم حيوان ثديي، ليتطور أخيرًا إلى إنسان"[1]، تقرر استمراريةً تقدمية. وهذا الذي تستلزمه الداروينية مخالف لمقتضى الإقناع العقلي، كما أنه خلاف صريح الوحي، قال ﷻ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾[الإسراء: ٥٨]، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية: ٢٦]، وعنه ﷺ أنه قال :"خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا... فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"[2]، وصح عنه ﷺ أن الساعة تقوم على شرار الخلق، "ويبقى شرار الناس، في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا"[3].

والنتيجة التي يسلمنا لها جميع ما سبق تكمن في **أن الداروينية تنفي العقل الإنساني برمته، ولا يمكن أن تجد لها فيه مسوغًا واحدًا تزعم به منطقيتها وعقلانيتها**؛ ذلك أن الداروينية إذ تنتهي في تصورها للعقل إلى الطعن في العقل ذاته، فهي ترمي إلى حيونة الإنسان ونفي تمايزه؛ وهذا بالفعل ما نستنتجه من إصرار (داروين) على أن الفارق بين الإنسان والحيوان في القدرات الذهنية هو فارق في الدرجة لا النوع، وعندئذ كيف لنا أن نفهم ادعاء علمية الداروينية؟ بل كيف لنا أن نفسر مزاعم كثير من المناصرين لها على أنها منطقية؟ إذا كانت تؤول إلى عدمية المنطق ذاته وتصادر عليه.

وإذا كانت الداروينية تنتهي إلى نفي الضرورات العقلية، وبالتالي نفي أحكام العقل على الأشياء والأفكار بالصواب والخطأ؛ فما أثر ذلك على النظرية الأخلاقية...؟

هذا ما سيجيبنا عليه المبحث القادم إن شاء الله تعالى.



(١) خرافة التطور، ص٣١، انظر: نشأة الإنسان،١/ ١٤٣، حقيقة التطور، ص٢٣١ وما بعد، لماذا ينجح التطور، ص١٧٣-١٧٩. وانظر: تفنيد الأركان الصغرى للداروينية، جيري بيرجمان، ص٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، ٤/ ١٣١(٣٣٢٦).

(٣) انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (٢٩٤٠)، ومسند الإمام أحمد، الحديث رقم (٦٥٥٥)، والسنن الكبرى للنسائي، حديث رقم (١١٥٦٥)، وصحيح ابن حبان، الحديث رقم (٧٣٥٣).

المبحث الثاني

الآثار الفلسفية للداروينية على أصول الأخلاق

إن العنصر الأخلاقي هو مجال منفعل بالنظر إلى المعرفة، فحصيلة أثر الداروينية في المعرفة تجد في الأخلاق مجالاً خصبًا لتطبيقها؛ إذ نجد (داروين) ينفي الطبيعة المتعالية للقيم الأخلاقية أسوةً بنفيه المبادئ الضرورية للعقل؛ فيفسر مصدر الواجب الأخلاقي عند الإنسان على أساسٍ طبيعي محايثٍ يكمن في "أنَّ أي حيوانٍ مهما كان يكون موهوبًا بغرائز اجتماعية واضحة جدًا... من شأنه أن يكتسب بشكلٍ محتوم حِسًا أخلاقيًا أو ضميرًا، بمجرد أن تصبح قدراته الذهنية على نفس القدر أو مقاربة إلى الحد الذي وصل إليه تكونها في الإنسان"(١)؛ فمعرفة الإنسان بالواجب الأخلاقي تعود إلى الإقرار بوجود غرائز اجتماعية عند الحيوانات الأدنى رتبة، نشأتْ بدافعٍ عشوائي أثبتتْ فاعليتَها في إحداث المنفعة، وهكذا حتى تحولت إلى عادة، "والعادات من الأشياء المتوارثة"(٢) ثم تصبح غريزة، وبمجرد أن يمتلك الحيوان قدراتٍ ذهنيةً عاليةً يصبح قادرًا على التفكير في تصرفاته ودوافعها الغريزية، حتى إذا ما "تم اكتساب المقدرة الخاصة باللغة، وبات من الممكن التعبير عن الرغبات الخاصة بالمجتمع، فإن الفكرة الشائعة عن الكيفية التي يجب على كل فردٍ فيه أن يتصرف بها من أجل الصالح العام؛ من الطبيعي أن يكون من شأنها أن...توجه التصرفَ"(٣)، وهذا الفارق الأخلاقي بين الحيوان والإنسان هو فارق في الدرجة فقط؛ إذ "الحيوانات الدنيا، تشعر -بشكلٍ واضحٍ- مثل الإنسان بالسرور والألم والسعادة والتعاسة"(٤)، كما اعتبر (داروين) "أن عدم تقبل المرء

---

(١) نشأة الإنسان،١/ ٢٦٥.

(٢) المرجع السابق،١/ ٢٤٧، انظر: التعبير عن العواطف عند الإنسان والحيوانات، لداروين، ص٤١ وما بعد.

(٣) نفسه،١/ ٢٦٦.

(٤) نفسه، ١/ ٢٠٦.

للسلوك الأخلاقي يكون إلى حدٍ ما مرادفًا في طبيعته لاستحساننا مظهرنا الشخصي"[1]، ومن هنا حلَّلَ نشوءَ عددٍ من القيم بواسطةِ الانتقاءِ الطبيعي[2].

والمهم هنا أن جوهر الأخلاق التي يُثبتها (داروين) للإنسان لا يعني معرفةً قبليةً بالقيمة أو أنها تستند إلى معارف قبلية، وإنما معرفةُ الواجبِ تتحدد في ظلِّ الظرف؛ فالإنسان -من بين الحيوانات- هو من يستطيع التفكير في منفعته فـ"بما أن جميع الرجال يسعون وراء سعادتهم الشخصية، فإن المديح واللوم يتم الإسباغ به على الأفعال والدوافع وفقًا لانقيادهما إلى تلك النتيجة، وعلى أساسِ أن السعادة جزءٌ جوهري من الصالح العام، ومبدأ السعادة الكبرى يصلح بشكلٍ غيرِ مباشرٍ على أساسِ أنه معيارٌ...للصواب والخطأ، وبما أن قدرات الترزن تتقدم، والتجربة يتم اكتسابُها؛ فإن التأثير الأكثر بُعدًا لمسالك معينة من التصرف على الطابع الخاص بالفرد وعلى الصالح العام: يتم استيعابُه"[3]، وبالتالي العمل به لتحديد ما هو الواجب؛ وهكذا يستمر التطور في الأخلاق؛ فـ"بَعد الممارسة الطويلة...يكون من الممكن للميول الفاضلة أن يتم توارثها"[4]، فينبع الضمير الأخلاقي من "النشاط المشترك للغرائز والعقلانية... دون الحاجة إلى تدخلٍ غيبي"[5]؛ ولا يمكن أن توجد القيم الأخلاقية عندئذٍ بصورةٍ فطريةٍ قبلية، "وبشكل صارم معرفيًا ينبغي ألا نفترض أن قوانين الطبيعة موجودة مسبقًا في الظواهر، أو أن القيم الرياضية التي اكتشفت هناك تم كتابتُها مسبقًا في حالةِ غيابِ الظواهر"[6]. وبنفس المنطق فإن القيم الأخلاقية لا يمكن أن توجد قبليًا؛ لكونها "غير عقلانية"[7]، أي لا تمثل معرفةً فطرية؛ ولهذا كله كان (داروين) "ملتزمًا بعمق بالمنظور

---

(١) التعبير عن العواطف، ص٣٧١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢١٩وما بعد، نشوء الحب وارتقاؤه، جيرالد هوتر، ص٣١ وما بعد.

(٣) نشأة الإنسان، ٣/ ٢٢٦.

(٤) نشأة الإنسان، ٣/ ٢٢٧.

(٥) من داروين إلى هتلر، ريتشارد وايكارت، ص٣٩.

(٦) نظرية التطور تاريخ ومجادلات، ص٢١٦.

(٧) من داروين إلى هتلر، ص٤١.

الفردي...فقد كان يتقبل كليةً أن الأخلاقيات من الخواص التي تتعلق بالمجموعة...،كما تقبل كذلك أن الأخلاقيات فيما يبدو تعمل ضد اهتمام الفرد"[1]، وإذا كان وجود القيم قد حدث بفضلِ العاطفةِ الاجتماعية "فإن آلية إنتاج هذا الفيض من الغرائز الاجتماعية كان الانتقاءَ الطبيعيَّ عبرَ صراعِ البقاء، وستنتصر المجموعات ذات العناصر المتعاونة والمضحية على المجموعات ذات العناصر الأكثر أنانية"[2].

ولم يكن (داروين) يقف ضد الدور الديني الذي قد مثل في مرحلةٍ ما قوةً للعمل بالأخلاق؛ إلا أنه انتهى إلى أنسنة الأخلاق واعتبر –بخصوص الإنسان– أن "قناعاته المعتادة توفر له الدستور الأسلم، وعندئذٍ يصبح الضمير هو المحك والمرشد الأعلى... وتلك الغرائز التي لا شك في أنه قد تم اكتسابها في الأصل –كما هو موجود في حالة الحيوانات الأقل في المستوى– من خلال الانتقاء الطبيعي"[3].

ولاشك أن نظرة (داروين) للأخلاق على أنها عاداتٌ تحولتْ إلى غرائز بتعاقب العمل بها وإثباتها للمنفعة قد أثارتْ مشكلةَ حريةِ الإرادة لديه، وبالفعل فقد مال (داروين) إلى الحتمية البيولوجية التي تقود الإنسان فيما يتعلق بعموم تعبيراته ولاسيما الأخلاقية كالإيثار والحب والتعاون ونحوها؛ "فالأفعال التي تبدأ إرادية سرعان ما تتحول إلى عاداتٍ ثم تُوَرَّث في الآخر، وقد يتم تطبيقها حتى بشكل يناقض الإرادة، ومع أنها في الأغلب تفضح حالة الذهن، إلا أن هذه النتيجة لم تكن في البداية مقصودة"[4]، فلا وجود لمعنى قبلي يقصد إليه الإنسانُ فضلاً عن أن يحدد إرادتَه باتجاهٍ ما، فـ"مستحيل... اعتبار أن الحركات كانت في البداية إما موجهة لاستخدامٍ مباشر، أو للتعبير عن تأثيرٍ غيرِ مباشرٍ للحالة المستحثة لمجموعة الحواس"[5]، كما لا يمكن لها أن تُتَعلم فـ"إن الفعاليات التعبيرية الرئيسة في الإنسان...هي

(١) داروين، لريوس، ص٢٦٢، وانظر: نشأة الإنسان، ٣/ ٢٢٣.

(٢) من داروين إلى هتلر، ص٤١.

(٣) نشأة الإنسان، ٣/ ٢٢٧.

(٤) التعبير عن العواطف، ص٣٩٨.

(٥) المرجع السابق، ص٣٩٩.

الآن إما غريزية أو متوارثة، وهذا يعني أنها لم يتم تعلمها من قِبل الفرد...وإنه ليس للتعليم أو التقليد أي علاقة بالعديد منها، وهي تبقى -منذ نعومة أظفارنا وخلال مراحل الحياة جميعها- خارجة عن نطاق سيطرتنا"(١). هذا كما أنَّ قضية الحكم الأخلاقي تأثرتْ بشكلٍ كبيرٍ بهذه الحتمية؛ إذ نجد (داروين) ينفي إمكانية قيام معيارية موضوعية للحكم الأخلاقي؛ لأنه لا وجود لقيم موضوعية وإنما غرائز، كما لا وجود لإرادةٍ للحكمِ بالخطأ أو الصواب، فـاعتَبر أنَّ "حاسة التذوق للجمال... ليستْ ذات طبيعة خاصة في العقل الإنساني؛ وذلك لأنها تختلف بشكلٍ واسعٍ فيما بين الأعراق المختلفة للإنسان، وهي ليست متماثلة تماما في الأمم المختلفة التابعة لنفس العرق"(٢)، فبسبب أنها نسبية لا يمكن الحكم؛ ولذا يفسر (داروين) العديد من الأحكام الأخلاقية التي قد يصدرها الضمير الأخلاقي على أنها لا تستند إلى معيارٍ موضوعي؛ فـ"فيما يتعلق بالشعور بالعار من انتهاكٍ أخلاقي، فبإمكاننا إدراك أن هذا الانتهاك ليس بجريمة، ولكن التفكير بأن الآخرين ينظرون إلينا كمجرمين هو الذي يسبب التورد، والمرء الذي يحاكَم لجرمٍ اقترفه في الخفاء...ومن ثم حاسبه ضميره لا يتورد، ولكنه يتورد تحت وطأة وعيه الدافع بأن جريمته قد اكتُشفتْ"(٣)، والنتيجة إذن أنَّ "الكثير من الملَكات التي قد كانت ذات فائدة لا تقدر للإنسان من أجل تقدمه المطرد، مثل: القدرات الخاصة بالتخيل، والتعجب... والإحساس غير المحدد بالجمال، والنزعة إلى المحاكاة، وحب الإثارة والأشياء غير المألوفة: من الصعب أن تفشل في أن تؤدي إلى تغيراتٍ نزوية في العادات والأنماط السائدة"(٤)، فالأخلاق إذن في مُتَغيرةٍ لا متناهيةٍ بفعل الانتخاب الطبيعي.

ولقد "انبثقتْ عن النظرية الداروينية محاولاتٌ عديدة لبناء نظام أخلاقي جديد يعتمد على فرضيات التطور"(٥)؛ إذ نجد أن (سبنسر) "بعد نشر (داروين) لنظريته تخلص... من

(١) نفسه، ص٣٩٣.

(٢) نشأة الإنسان،١/ ٢٤٧.

(٣) التعبير عن العواطف، ص٣٨٦.

(٤) نشأة الإنسان،١/ ٢٤٨.

(٥) من داروين إلى هتلر، ص٤٢.

وجود الإله وَطَوَّرَ منظومةً أخلاقيةً طبيعانية بالكامل"[1]، يقول فيها "بأن الناس في حالةِ الطبيعةِ كانوا يجهلون المشكلة الأخلاقية، وكان أحدهم لا يحمل عند ولادته أي مبدأ أخلاقي، ولا يتمتع بأي شعورٍ بقيمٍ روحية، ولكن التجربة الشخصية قادته إلى محاولاتٍ أخلاقيةٍ متفرقة، وانتقلتْ الاعتباراتُ الأخلاقية عبر الأجيال بالوراثة،... وساعد ارتقاؤها على اصطفاء النافع منها حتى صارتْ المبادئُ الخُلقيةُ الآن فطريةً في الفرد بعد أن اكتسبها النوع البشري في تجاربه الغابرة"[2]، وهي في صيرورةٍ لا نهائية؛ ولذا أقام منظوريته في إصلاح المجتمع على أساسِ سيولةِ القيمِ وكَسْبيتِها؛ فاعتبر أنَّ "الآلية التي نشأ بها النظام الاجتماعي هي البقاء للأصلح، وهو المصطلح الذي قدمه هو وليس (داروين)....الأغنياء كانوا أغنياء؛ لأنهم كانوا أكثر لياقة، سيطرت بعض الدول على الأخرى لأن هذه الشعوب كانت متفوقةً بشكلٍ طبيعي"[3]، وهكذا فالعمل على مساعدةِ الضعفاء ورعايتهم وتعليمهم ونحوها هو بمثابة مناقضٍ لقانون التطور الطبيعي. كما أن نيتشه "تبَنَّى منظومةً أخلاقية ينتج عنها الإنسان السوبرمان"[4] كأرقى جنسٍ بشري، كما وافق على سيولةِ القِيَمِ برفضه لقيم الرحمة والتعاطف، واعتبارها أخلاقًا لجنسٍ أدنى (العبيد)، فقرر بأن "الأخلاق الداروينية الصحيحة المترابطة بحقٍ ستستنبط مبادئ أخلاقيةً للحياة من مبدأ (حرب الجميع ضد الجميع) بالإضافة لامتيازاتِ الأقوى"[5]؛ ومن هنا فقد "أظهر نيتشه انجذابًا نحو الداروينية فقط؛ لأن الداروينية الداروينية تتضمن عدمَ المساواة، حيث يقهر القويُ الضعيفَ ويصرعه"[6].

(١) المرجع السابق، ص٤٢.

(٢) التطور والنسبية في الأخلاق، ص١٩.

(٣) تأثير داروين، جيري بيرجمان،٢/ ٣٧١، ٣٧٢، ونشير هنا إلى أن (داروين) أقر هذا المصطلح واعتبره مرادفًا لقوله: (بالتناحر من أجل البقاء) وعلى هذا فلا معنى للمباعدة بين أخلاقية سبنسر والداروينية. انظر: أصل الأنواع ترجمة أميرة سيد، ص١٨٣.

(٤) من داروين إلى هتلر، ص٧٣.

(٥) المرجع السابق، ص٧٥.

(٦) المرجع السابق، ص٧٥.

وإلى جانب ذلك أيضًا استمر ازدهار الأخلاقية التطورية بحيث ساهمتْ في هدم أساسِ الأخلاق، وهو الاعتقاد بالحرية؛ إذ اعتبر (بارتولوميس كارنيري)[1] "أن أهم مساهماتِ (داروين) في الفكر الأخلاقي هدمُ فكرة حرية الإرادة، عبر تقويض الغيبيات وثنائية الفكر والجسد، والهدف من خلق الكون. وضعتْ الداروينية كل المفاهيم الإنسانية بما فيها الأخلاق تحت سيطرة القانون الطبيعي"[2]؛ فعندما فسر ظهورَ الأخلاق "لم يُصَدق أنه لدى الإنسان غريزة اجتماعية... واعتبر أن ميول الإنسان البيولوجية الطبيعية أنانية... نحو حفظ النفس، وليس التضحية بالنفس"[3]، فالأخلاق إذن لا تنشأ بفعلِ قوةٍ داخليةٍ بقدر ما تنشأ بفعل العواملِ الخارجيةِ كالرغبة في المنفعة. ونفيُ فطريةِ الأخلاق والقول بماديتها لازمٌ صريح للداروينية أبان عنه (كارنيري) هنا. وهو اقتراحٌ قرره (داوكينز) أيضًا حينما اعتبر "أن الوحدة الأساسية للانتقائية، وبالتالي للمصلحة الشخصية، ليست الفصيلة أو المجموعة أو حتى الفرد. هي في الواقع: الجينية، أي الوحدة الوراثية"[4]، فالجين بمثابةِ نهرٍ أصلي للحياة يتخذ من جسد الحيوان/ الإنسان مستقرًا له يتمظهر من خلاله؛ و" طبقًا لنظرة (داوكينز) إلى الحيوان كآلةِ بقاءٍ تحركها جيناتٌ أنانية: أن يكون الحيوان ذا طبيعة سافلة عدوانية في أصله، حتى سلوكه الإيثاري الظاهري هو أناني في الأصل، وسلوكه التعاوني هو نفعي في الأصل"[5]، والتوجه لدراسة الأخلاق بالنظر إلى الجينات في الأخلاق التطورية استُثمر لاحقًا لمحاولةِ تفسيرِ تطورِ عددٍ من القيم الأخلاقية دون اللجوء إلى القول بطلاقية الأخلاق، "تخيل معنا أن بعض المتعاونين ينشؤون عن طريق الصدفة في مكانٍ ما. يستخدمون إستراتيجية الواحدة بواحدة... في مقابلاتهم مع الأفراد الآخرين... فهم يتعاونون ويتفوقون على منافسيهم الأكثر

(١) مفكر ألماني، كان سياسيًا في البلاط النمساوي، اهتم كثيرا بالرابطة بين الداروينية والأخلاق، نشر كتابه "الأخلاق والداروينية" عام ١٨٧١م. انظر كتاب "من داروين إلى هتلر" ص٤٥ وما بعدها.

(٢) من داروين إلى هتلر، ص٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧.

(٤) الجين الأناني، ريتشارد داوكينز، ص٢١.

(٥) نقد الأخلاق التطورية، رضا زيدان، ص٥٩.

أنانية... وإذا قاموا بتمرير طبيعتهم التعاونية إلى أحفادهم بيولوجيًا أو ثقافيًا؛ فإن هؤلاء المتعاونين الأقوياء سوف يفوزون... بل سينخرطون أيضًا في الإيثار المتبادل، أي: السلوك التعاوني مع تأجيل المكافأة"[1]، كما أن ذلك النظر الإيجابي لدور الجين عزز إمكانيةَ تفسيرِ الأخلاق تطوريًا من خلال مبدأ: "انتقاء القرابة"[2] لا الجماعة؛ بحيث ينبثق الإيثار –مثلاً– من الرغبة في البقاء في أكبر مجموعةٍ بإمكانها توارث جينات الشخص.

وإلى جانب هذا نشأ اتجاهٌ تطبيقي للأخلاق الداروينية يرى ضرورة المساهمة في عمل التطور وعدم الوقوف لانتظار نتائجه طويلة الأمد، "وتُعْرَفُ الطريقة الثانية لدعم الازدهار التطوري باليوجينية"[3]، وقد برزت معظم تطبيقات هذا الاتجاه في الجانب الواقعي؛ ذلك أن "كثيرًا من مؤيدي اليوجينية يدافعون... عن إجراءاتٍ لزيادة التنافس بين البشر"[4]، و"العثور على معايير عملية لتحسين وراثة الإنسان"[5]، وهي أهداف تمظهرت في رؤى عددٍ من التطوريين واليوجينيين، وبرز لذلك ما يسمى بالعنصرية البيولوجية القائمة على أساسِ عدمِ المساواةِ بين أفراد الجنس البشري؛ "فإذا لم يكن هناك اختلافات بين الأعراق فلن يحدث التطور، والسبب أنه يجب أن توجد اختلافات كبيرة حتى يكون للاختيار الطبيعي شيءٌ يمكن الاختيار منه"[6]، وهذا المبدأ قد رَسَّخَ وجودَ أعراقٍ هي أدنى، فاعتُبر أن "المنتمين لأعراقٍ غيرِ أوربية تنويعاتٌ على الجنس البشري –بل وأحيانًا نوع منفصل تمامًا عن النوع البشري– ليست متحضرة بتقدمهم التطوري مثل الأوربيين"[7]، فـ"استنتج العديدُ من أنصار التطور... أنَّ السود كانوا أقل تطورًا من البيض، وأنهم سينقرضون في النهاية"[8]، وعَمِل اليوجينيون على

(١) لماذا ينجح التطور؟، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٩، وانظر: داروين، لريوس، ص٢٦٦.

(٣) من داروين إلى هتلر، ص٧١.

(٤) المرجع السابق، ص٧١.

(٥) نفسه، ص٧٩.

(٦) تأثير داروين،١/ ٥٨.

(٧) من داروين إلى هتلر، ص١٥٣.

(٨) تأثير داروين،٢/ ٢٨٦.

تطبيق هذا من خلال الدعوات (والقوانين لاحقًا) التي تحد من التزاوج بين الأعراق الأدنى، بل وتعقيم المعاقين والضعفاء عقليًا والفقراء والزنوج ونحوهم، وقد أسس (فرانسيس جالتون)(١) ما عُرف بحركةِ تحديدِ النسل، منبثقة من هذا المبدأ الدارويني، زاعمًا "أنه من أجل مستقبل البشرية؛ يجب وقف تلويث مجموعة الجينات الثمينة المتفوقة لبعض الفئات عن طريق منع تزاوجهم مع السلالات الأدنى، وكانت الخطوة التالية هي أن البشر يجب أن يُوجِّهوا بذكاءٍ تطور جنسهم"(٢) من خلال العملية الانتقائية، وهو ما دعمه (داروين).

وقد وجدتْ النازيةُ بهذا الأساس الدارويني صياغةً علمية داعمة لجرائمها في إبادة غير اللائقين من المعاقين واليهود وغيرهم؛ إذ انتهى (هتلر)(٣) إلى "أنَّ الأقوى يجب أن يسيطر على الأضعف، وأدان الزواج بين الأجناس المتدنية، واعتبر أن الحق الدارويني الطبيعي للأعراق العليا هو استعباد الأجناس الدنيا"(٤). كما أن هذا المبدأ الدارويني كان قد رسخ مبدأ دونية الأنثى مقارنة بالرجل بيولوجيا، فبدايةً حفَّز (داروين) "الرجالَ لإيجادِ مجموعةِ أسبابٍ تفسر لماذا كانت المرأة (أدنى بشكلٍ واضحٍ من الرجل وخاضعة له...) وذلك باستخدام البيولوجيا وعلم الأعراق البشرية وعلم الرئيسيات. وأسباب هذا... هو التأثير الكبير للافتراضات التطورية -خصوصًا الانتقاء الطبيعي والجنسي- على العلماء وعلى رؤيتهم الكونية"(٥)، واعتقد واعتقد لذلك أحدُ المتأثرين ب(داروين) أنَّ "الأنثى (إنسان توقف تطوره)... وأن الفجوة التطورية بين الذكور والإناث تزداد مع تقدم الحضارة"(٦)، وهكذا إذن عُدَّتْ الداروينية رؤيةً محوريةً للتنظير لعددٍ من الأفكار والأعمال الإجرامية في حق الإنسانية جمعاء، وهو اعتراف

(١) السير فرنسيس جالتون (١٨٢٢م-١٩١١م) ابن عم تشالرز داروين، يعدُ مؤسس علم تحسين النسل، وهو من أهم المخلصين لأفكار داروين. انظر: تأثير دارون ١/ ٧١- ٩٥.

(٢) المرجع السابق،١/ ٨١، ٨٢.

(٣) أدولف هتلر (١٨٩٩م-١٩٤٥م)، دكتاتور ألماني، وزعيم الحزب النازي، ومؤسس الرايخ الثالث، قادات سياساته إلى الحرب العالمية الثانية، مات منتحرًا. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ٤/ ٢٥٣٣.

(٤) نفسه،١/ ٦٢، ٦٣.

(٥) المرأة بين الداروينية والإلحاد، جيري بيرغمان، ص٤٠، ٤١.

(٦) المرجع السابق، ص٤٥، بتصرف يسير.

أكده الدراويني ريوس بقوله: "فالأخلاق التطورية التقليدية والداروينية الاجتماعية لها سمعة سيئة، وهي جزئيًا مستحقة لذلك"(1).

والحقيقة أن الداروينية ما كان لها أن تنتج مثل هذه الوحشية الإنسانية إلا لكونها نفتْ الشر الموضوعي كونه قائمًا في الوجود، ورأت أنَّ "1- الخير والشر والخطأ والصواب أمور نسبية، مرجعيتها الإنسان وحده، أو... ما يتفق عليه المجتمع تبعًا للزمان والمكان. 2- لا يمكن اعتبار البشر في درجة واحدة من التطور"(2)؛ وبالتالي فإن الرَّجُل الأوربي –على سبيل المثال- ينبغي أن يدرك حين تعامله مع الزنوج بأنه: "لا معنى لحرمة الحياة الإنسانية؛ فقتل الإنسان لا يختلف كثيرًا عن قتل أي حيوان"(3)؛ وذلك أن "الجنس الأبيض من الأوروبيين هم من وصلوا إلى درجاتٍ متقدمةٍ في سلم تطور الكائنات، بينما الزنوج... هم أقرب إلى أسلافهم من القردة منهم إلى البشر"(4).

وهنا يرى أحد أتباع الداروينية "أن الكثير من المبادئ الحديثة مثل الحرية والمساواة والسلام لا تتوافق مع نظرية التطور؛... يجب على هذه المبادئ أن تفسح المجال لصالح حق الأقوى في صراع الوجود"(5)؛ ولذا فإن الدفاع عن الأخلاق التطورية بوصفها توفر أساسًا إنسانيًا للأخلاق(6) هو افتراض خاطئ لا يملك فهمًا حقيقيًا للداروينية التي تؤول إلى **العدمية الأخلاقية** كما رأيناه جليًا في تطبيقاتها العملية، وهذه العدمية هي بمثابة النتيجة الطبيعية لجعل الخير الأسمى هو التطور اللانهائي فـ"في واقع الأمر رغم تأكيد داروينيين كُثُر على عدم ثبات

---

(1) داروين، لريوس، ص261.

(2) الحقيقة والخيال في نظرية التطور، ص480، وانظر: التطور والأسئلة الكبرى، ص307.

(3) الحقيقة والخيال في نظرية التطور،ص480.

(4) المرجع السابق ص 480.

(5) من داروين إلى هتلر، ص58.

(6) انظر: أشهر 10 خرافات حول التطور، ص269.

الأخلاق وأنها متغير تاريخي، ورغم إصرارهم على نسبية الأخلاق؛ إلا أن هناك عاملاً واحدًا يبقى ثابتًا: عملية التطور نفسها"(١).

ولنا -هنا- أن نقول بأنه إن كانت الداروينية ستعترف بالأخلاق كمرحلةٍ في تطورِ البشر فإن أخذها بمطلقية التطور يقتضي أيضًا أن التخلي عن الأخلاق هو تطور في مرحلةٍ أرقى لاحقة، وتصادر بهذا على القول بوجود مبادئ أخلاقية ميتافيزيقية ثابتة. كما أن عدمية الأخلاق في الداروينية تبرز من خلال هدمها ركن الأخلاق، وهو الاختيار الحر في الفعل الإنساني، بافتراضها الحتمية البيولوجية التي نفهم منها أن الإنسان لا يستطيع سوى أن يعمل بالقيم كونها غريزة؛ الأمر الذي أدى إلى إنكار المسؤولية لدى عددٍ من أتباع الداروينية، واعتبار الرذيلة واقتراف الأفعال اللاأخلاقية أمرًا وراثيًا، الذي استلزم -لدى الداروينيين- عزلَ أعراقٍ وأسرٍ مُعَينةٍ لكونها ذات "استعداد وراثي (أو حتى إجبار وراثي) على ارتكاب الجرائم"(٢). ولا شك أن تأمل هذا ينتهي بنا إلى التأكيد على أن الداروينية حيونتْ الإنسان ونفتْ عنه جميع أوجه العقلانية المعرفية والأخلاقية، وهذا يضاد ما أخبر به المولى عن حقيقية الإنسان فقال ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: ٣]، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشمس: ٧، ٨]، وقد حدثنا ﷺ "أَنَّ الأمانة نزلت في جَذرِ قلوب الرجال، ونزل القرآن فقرؤوا القرآن، وعَلِمُوا من السُّنَّة"(٣)، وعنه ﷺ أنه قال: "البر حُسن الخُلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(٤)، حيث تدل النصوص على جانب الفطرة في المعاني الكلية للأخلاق فـ "إنَّ الله سبحانه فَطَرَ عباده على استحسان الصدق والعدل والعفة والإحسان ومقابلة النعم بالشكر، وفَطَرَهم على استقباح أضدادها، ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكذلك كل ما

---

(١) من داروين إلى هتلر، ص٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ٩/ ٩٢ (٧٢٧٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، ٤/ ١٩٨٠ (٢٥٥٣).

يُدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، فيفرقون بين طيبه وخبيثه، ونافعه وضاره"[1].كما تدل على موضوعية هذه القيم وأن لها وجودًا معنويًا؛ فـ"ما لاءم العقولَ والفِطرَ من الأعمال والأحوال وما خالفهما هو لما قام بكل منهما من الصفات التي اختصت به، فأوجب الملاءمةَ والمنافرةَ؛ فملاءمة العدل والإحسان والبر العقولَ والفِطرَ...، هي لما اختصت به ذوات هذه الأفعال من أمور ليست في الظلم والإساءة، وليست هذه الملاءمة والمنافرة لمجرد العادة والتدين بالشرائع، بل هي أمور ذاتية لهذه الأفعال مما لا ينكره العقل بعد تصوره"[2]، فالداروينية تنفي ثنائية الإنسان وترسخ ماديته؛ الأمر الذي يتنافى مع القول بوجودٍ للأخلاق؛ ففي ظل الداروينية تبقى الأخلاق في صيرورةٍ دائمةٍ تنتقل معها من استحسان شيء إلى استقباحه وكذا في العكس[3]، بحيث لا يمكن للداروينية أن تبرر وجودَ القيمِ الأخلاقية في ظل إطارها المادي العدمي، وهو الأمر الذي يؤكد دعوانا بأن الداروينية تهدم الأخلاق بنفيها وجود الخطأ[4]، والنتيجة هي أن يكون التطور أو ما هو كائن هو الخير لا غير، وهذا خلاف ما تقره العقيدة الإسلامية من إثبات فعل الإنسان للخير والشر، وبالتالي إقامة الحكم الأخلاقي وإثبات الجزاء على الفعل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٤، ١٣٥]، وقال: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾[الإسراء: ٧]، وفي جانب ثبوت الإرادة المختارة

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ١/ ٢٤٥.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم الجوزية، ٢/ ٦٧.

(٣) انظر هذه الجدلية الأخلاقية في: داروين، لريوس، ص٢٦٠.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٤٥، ونظرية التطور تاريخ ومجادلات ص: ١٣٩.

للإنسان: عن عليٍّ ﷺ أنه قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد[1]، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ[2]، فنكس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال: "ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة، إلا كُتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة." قال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منَّا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان منَّا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاء؟ قال: "أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيُيسرون لعمل أهل الشقاء" ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[الليل: ٥-٧] الآية"[3]؛ "فمن قال إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار، أو قال إنه لا قدرة له، أو أنه لم يفعل ذلك الفعل، أو لا أثر لقدرته فيه ولم يُحدث تصرفاته؛ فقد أنكر موجب الضرورة الأولى"[4]. كما أن إثبات الإرادة لا يمكن له أن يعارض الخلقية بحال كما زعم دعاة التطورية؛ إذ "سرُ المسألة أن العبد فاعل مُنفعلٌ... فهو مُنفعلٌ في فاعليته، فربه تعالى هو الذي جعله فاعلًا بقدرته ومشيئته وأقدره على الفعل، وأحدث له المشيئة التي يفعل بها"[5]، وببيان ذلك يتضح أن الداروينية لا يمكن لها أن تقود إلى تفسيرٍ حقيقي لماهيةِ الواجب، كما لا يمكن لها أن تملك تبريرًا فلسفيًا لعمل الإنسان بالقيم الأخلاقية، وبتعذر جوابها عن هاتين المسألتين الرئيستين تظهر مغالطتها في محاولة التفلسف الأخلاقي.

وبهذا ينتهي تحليلنا إلى أن الداروينية تهدم الأخلاق، وتنتهي إلى عدميتها أو القول بنسبيتها في أقل الأحوال، وهذا مخالف لصريح الوحي، وللرؤية الإسلامية التي بها ينتظم

(١) مقبرة أهل المدينة، وتسمى بقيع الغرقد، وهي العوسج، تقع داخل المدينة قرب مسجد الرسول ﷺ، وفيها يرقد كبار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. انظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ١/ ٢١٣، والجبال والأمكنة والمياه، ١/ ٥٠.

(٢) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا، أو عكازة، أو مقرعة، أو قضيب، وقد يتكئ عليه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾[الليل: ٩]، ٦/ ١٧١(٤٩٤٨).

(٤) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ٣/ ٢٣٧.

(٥) شفاء العليل، ابن القيم الجوزية، ص١٣١.

صلاح الدين والدنيا، كما أنه نذيرٌ بانفراط عقد السلم المجتمعي، واتجاه البشرية إلى التناحر من أجل البقاء دون رادعٍ من دين أو خُلُق.



الخاتمة

انتهى بنا التحليل والنقد للداروينية إلى عددٍ من النتائج أهمها:

١. انتقلت الداروينية من كونها نظريةً تجريبية إلى كونها إيديولوجيا ذات طابعٍ فلسفي تقدم رؤىً مصادمةً للدين والعلم والقيم.

٢. أصَّلَتْ الداروينية لمفهومٍ مادي للعقلِ الإنساني، استلزم القولَ بأن الضرورات العقلية هي نتاج تَكَيُّفِ الإنسانِ مع البيئة المُدَعَّم بالانتخابِ الطبيعي، كما اقتضى -ذلك من جانب آخر- حصر المعرفة في الظاهر بوصفه الوجود، وأن الحقيقة لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وهذا -عند التحقيق- يقضي على علميتها من جهة، ويؤول إلى القضاء على المعارف الإنسانية من جهةٍ أخرى.

٣. انتهت الداروينية في مجال الأخلاق إلى القول بعدميتها، أو نسبيتها في أقل الأحوال. كما أنها تصادر على الحرية بالاعتقاد بالحتمية البيولوجية، كما تنفي قيامَ معياريةٍ أخلاقيةٍ تتضمن نماذج موضوعية تمكن من الحكم على الفعل الإنساني بالصواب والخطأ.

٤. أبان الموقف النقدي للآثار الفلسفية للداروينية عن أنها عاجزة عن الإقرار بإنسانية الإنسان؛ إذ لم تثبت مقوماتها فرأينها تنفي العقل الإنساني بمقتضى ماديتها التي لا تعترف بالمبادئ الضرورية إلا على جهة إيهام المتلقي، كما كشف عن أنها تؤسس للعدمية الأخلاقية؛ فتنفي المبادئ الأخلاقية الكلية، وتعارض إمكانية التخلق بنفي الإرادة وقيام الحكم الأخلاقي على الفعل.

٥. انتهى بنا التحليل إلى أن الداروينية في مجال المعرفة والأخلاق تتعارض صراحةً مع صحيح الوحي، وتؤسس لمجتمعٍ يقوم على الفوضى وبقاء الأقوى في معزل عن أي رادعٍ من دين او خُلُق.



التوصيات:

١. ضرورة الالتفات إلى الآثار الفلسفية للداروينية، ومحاولة توظيفها في قراءة المنهج التجريبي الذي تستند إليه الداروينية.

٢. أهمية بحث علاقة الداروينية بالإلحاد من خلال تحليل منطلقاتها الفكرية من جهة، وتوظيف آثارها الفلسفية في ذلك من جهةٍ أخرى.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



فهرس بأهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. آدم عليه السلام بين التطور والتطور الموجه والوحي، إبراهيم الشحات، تكوين للدراسات والأبحاث، ط١، ٢٠١٩م.

٣. آدم والتاريخ، علي المخلبي، مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٨م.

٤. أشهر ١٠ خرافات حول التطور، كاميرون سميث وتشارلز سوليفان، ترجمة: سامر حميد، دار سطور، ط١، ٢٠١٨م.

٥. أصل الأنواع، تشارلز داروين، ترجمة: إسماعيل مظهر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠١٤م.

٦. أصل الأنواع، تشارلز داروين، ترجمة: أميرة سيد، دار الشرق، ٢٠١٨م.

٧. أيقونات التطور علم أم خرافة؟، جوناثان ويلز، ترجمة: موسى إدريس وآخرون، تكوين للدراسات والأبحاث، ط١، ٢٠١٤م.

٨. تأثير داروين، جيري بيرجمان، ترجمة: القسم العلمي بمركز تبصير، مركز تبصير، ط١، ٢٠١٨م.

٩. تاريخ الفلسفة، فردريك كوبلستون، ترجمة: محمود سيد، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٩م.

١٠. تاريخ الفلسفة، إيميل برهييه، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

١١. تطور الإنسان مقدمة صغيرة جدًا، برنارد وود، ترجمة: زينب عاطف، مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٦م.

١٢. تطور الجنس البشري، محمد السيد غلاب، مؤسسة شباب الجامعة-الإسكندرية، ط٤، ١٩٦٣م.

١٣. التطور الخالق، هنري برجسون، ترجمة: محمود محمد قاسم، آفاق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م.
١٤. التطور المشروع الإناسي لداروين، عبد اللطيف الشقوري، أفريقيا الشرق،٢٠١٥م.
١٥. التطور نظرية علمية أم إيديولوجيا؟، عرفان يلماز، دار النيل، ط١، ٢٠١٣م.
١٦. التطور نظرية في أزمة، مايكل دنتون، ترجمة: آلاء حسكي وآخرون، مركز براهين، ط١، ٢٠١٧م.
١٧. التطور ما تزال نظرية في أزمة، مايكل دنتون، ترجمة: محمد القاضي وآخرون، مركز براهين، ط١، ٢٠١٧م.
١٨. التطور والأسئلة الكبرى، دافيد ن.ستاموس، ترجمة: عزت عامر، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٤م.
١٩. التطور والنسبية في الأخلاق، حسام الألوسي، دار الطليعة، ط١، ١٩٨٩م.
٢٠. التطور، برايان وديبورا تشارلزووث، مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٦م.
٢١. التعبير عن العواطف في الإنسان والحيوانات، تشارلز داروين، ترجمة: محمد عبد الستار، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠١٠م.
٢٢. تفنيد الأركان الصغرى للداروينية، جيري بيرجمان، ترجمة: القسم العلمي بمركز تبصير، ط١، ٢٠٢٠م.
٢٣. ثورة في فهم أصول البشر وثقافاتهم، جان فرانسوا دورتيه، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، ط١، ٢٠١٧م.
٢٤. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٥. الجبال والأمكنة والمياه، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، تحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع – القاهرة، ١٣١٩هـ-١٩٩٩م.
٢٦. الجين الأناني، ريتشارد داوكينز، ترجمة: تانيا ناجيا، دار الساقي، ط١، ٢٠٠٩م.

٢٧. حضارات ما قبل التاريخ، خزعل الماجدي، الرافدين للطباعة والنشر، منشورات تكوين تساؤلات، ط٢، ٢٠١٨م.
٢٨. حقيقة التطور، كاميرون إم.سميث، ترجمة: سامر حميد، ط١، ٢٠١٨م.
٢٩. الحقيقة والخيال في نظرية التطور، حسن نصرت، دار المدني، ط١، ٢٠١٨م.
٣٠. خرافة التطور، روبروت جيمس، ترجمة: فداء ياسر، مركز الفكر المعاصر، ط١، ١٤٣٦هـ.
٣١. داروين والتطور، دعاس ناصيف، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٥م.
٣٢. داروين وشركاه، بيير تويبه، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، ط١، ٢٠١٨م.
٣٣. داروين، مايكل ريوس، ترجمة: فتح الله الشيخ وأحمد عبد الله السماحي، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٠م.
٣٤. الدين والعلم، برتراند رسل، ترجمة: رمسيس عوض، دار الهلال.
٣٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ٢٠٠٢م.
٣٦. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، لبنان.
٣٧. شخصيات وتواريخ في السياسة والفكر والأدب والفن، كريم مروة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.
٣٨. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ.
٣٩. صندوق داروين الأسود، مايكل بيهي، ترجمة: مؤمن الحسن وآخرون، مركز براهين، ط٢، ٢٠١٨م.
٤٠. فلسفة المصادفة، محمود أمين العالم، دار المعارف بمصر.
٤١. فلسفة النشوء والارتقاء، شبلي شميل، دار مارون عبود، ١٩٨٣م.

٤٢. قراءة داروين في الفكر العربي، مروة الشاكري، ترجمة: محمد سعد كامل، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٧م.
٤٣. قصة الإلحاد: قراءة تاريخية للإلحاد، محمود عبد الرحيم، دار اكتب، ط١، ٢٠١٧م.
٤٤. كيف بدأ الخلق، عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية، ط٣، ٢٠١٣م.
٤٥. لماذا ينجح التطور؟، مات يانغ-بول غاي، ترجمة: سامر حميد، سطور للنشر، ط١، ٢٠١٩م.
٤٦. مدارج السالكين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤١٦هـ.
٤٧. المرأة بين الداروينية والإلحاد، جيري بيرغمان مع مدخل لملاك الجهني، مركز دلائل، ط١، ١٤٣٨هـ.
٤٨. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي الحنبلي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٤٩. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
٥٠. معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
٥١. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٢. من داروين إلى هتلر، ريتشارد وايكارت، ترجمة: جنات جمال ويسرا جلال، مركز براهين، ط١، ٢٠١٩م.
٥٣. منطق البحث العلمي، كارل بوبر، ترجمة: محمد البغدادي، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٦م.

٥٤. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ.
٥٥. المنهاج شرح صحيح مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٥٦. الموسوعة العربية الميسرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، دار الجيل، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
٥٧. موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبد المنعم الحنفي، مكتبة مدبولي، ط٣، ٢٠١٠م.
٥٨. نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، تشارلس داروين، ترجمة: مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.
٥٩. نظرية التطور تاريخ ومجادلات، دينيس بيكان وسيدريك جريمو، ترجمة: بسنت عادل، دار صفصافة، ط١، ٢٠١٥م.
٦٠. نظرية التطور في الفكر العربي الحديث، زينب عبد الرحمن، مصر العربية، ط١، ٢٠١٧م.
٦١. نظرية التطور وأصل الإنسان، سلامة موسى، مركز المحروسة للنشر، ط١، ٢٠١٧م.
٦٢. نقد الأخلاق التطورية، رضا زيدان، مركز براهين، ط١، ٢٠١٨م.
٦٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٦٤. هيرقليطس فيلسوف اللوغس، الطيب بوعزة، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.

المراجع الإلكترونية:

٦٥. داروين والثروة الداروينية: الداروينية والفلسفة مدخل عام، نبيل فياض، مقال بموقع جمعية الأوان https://www.alawan.org.

66. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%AF_%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%84_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3.

